

عمارة الذوق

خليل المسنودي

المطبعة

من

وحجج الرسالة

أحمد حسن الزيات

دستة محفلات

دار الشرق
بيروت

دار القلم
الكويت

خليل الهنداوي عمدة الذوق

المقتبس
من
وحي الرسالة

أحمد حسن الزيات

دراسة ومجلدات

دار الشروق
بيروت

دار القلم
الكويت

الزيت ، معلم جيل

تمهيد :

— لم يكن أحمد حسن الزيات ذلك الاديب الذي يتصل بأدبه وحده كما كان شأن بعض معاصريه من الادباء ولكنه كان نسيج وحده وصاحب مدرسة كان لها أثرها وخطرها في توجيه أجيال من الادباء والقراء .

وبذلك كان وجوده لا يرتبط وحده ، وأدبه لا يقف عند حدود معلومة ، وإنما كان يرتبط بأكبر حدث في الادب العربي والصحافة الادبية ، يوم أصدر مجلة الرسالة التي لم تكن حقا الا ملتقى لادباء بارزين ، ومدرسة لادباء ناشئين ومحجة للأفكار على اختلافها والاذواق على ألوانها ، ومنطلقا عميق الجذور للتبشير بالفكرة العربية ، والاسلامية الواعية ، ومضطربا للاحداث الكبرى ، والمشاعر التي كانت تموج في العالم العربي الذي مزقته المذاهب ، وشككته في شخصيته وحقيقته ، وأعمت عليه الطرائق والمسالك .

ومن هنا كانت أهمية وجود أحمد حسن الزيات .

ولا شك ان العصر الذي كان فيه هو عصر التمهض والاضطراب ، ذلك العصر الذي تفجر فيه الفكر العربي ، وتبدت ملامح الشخصية العربية ، على أثر الثورات التي اقتحمت عالمه السياسي والاجتماعي والادبي .

ففي السياسة كان العالم العربي مسرحا لانطلاقات عنيفة مع المحتلين والمستعمرين ، لا يكاد يهدأ جانب حتى يثور جانب ، والهدف كله استعادة استقلال منزوع ، وحرية موءودة ، وحقوق مهضومة ، نرى ذلك على كل صعيد في كل قطر عربي ، في مصر مناهضة للاحتلال وفي سورية ثورة على الانتداب ، وفي العراق قيامة على الاستعمار .

وفي المجتمع تناقضات اجتماعية مظهرها الخداع والخيانة ، والاستئثار والاستغلال ، وسيادة الفقر والجهل والمرض . وفي مثل هذه الحالة لا بد للادباء ان يشعروا بأن ما يتمخص عنه هذا المجتمع الفاسد لا يفيد منه الا المستعمر ، ليأخذ بناحية طبقة من الممتازين ، يغويهم بالجاه والحكم والثروة ، وينقض على طبقة من الناس ، ليس نصيبها من الحياة الا البؤس والحرمان .

وفي الادب بدأ طور التحرر من القوالب الجامدة ، والاتجاه نحو أدب الحياة الذي تصدق فيه المشاعر ، وتذوب الافكار ، فهو يعاني حركتين متناقضتين ، الاولى حركة المحافظين المقلدين الذين لا يستطيعون أن يجدوا أنفسهم ، ولا يشعروا بأن الادب هو أدب الحياة ، وقد عكفوا على الاساليب التقليدية يتدارسونها ، ويقلدونها ، ولا يجدون فكاً منها ، والثانية حركة المجددين الذين رأوا أن الحياة وحدها هي مصدر أفكارهم ومشاعرهم ، درسوا الاساليب القديمة ولم يتقيدوا بها ، وانما أوجدوا لانفسهم أساليب جديدة تتلاءم مع الحياة والعصر .

وخلال ذلك كانت منازعات أدبية بين التمسك بتقاليد الاسلوب العربي وسماته ، وبين النسخ على منوال الادب الغربية التي اقتحمت العالم العربي ، ونفذت الى تفكيره ، وحياته . . . فكان ان انقسم الادباء شيعا ، منهم من أخذته العزة بالقديم ، فلا يتزحزح عنه أسلوبا وفكرة ، ومنهم من تنكر للقديم ، واعتبر نفسه كونا جديدا ، ومنهم من لاءم بين الحالين ، اذا اعتقد ان الانسان اين قديمه وجديده .

ولا عصر كهذا العصر يشبهه في اضطرابه وقلقه ، نرى فيه الازهري المحافظ يتقلب فجأة الى مجدد عصري ، كما نرى الذي ثقف نفسه تثقيفا عصريا يعود فجأة الى ما وراء عصره .

في هذا العصر المتقلب رأى أحمد حسن الزيات نور الحياة .

روى الزيات نفسه تاريخ مولده ونشأته فذكر بأنه ولد عام ١٨٨٩

في قرية « كفر دميرة » القديمة من مركز « طلخا » وتلقى علومه في الازهر
عشر سنين ، ثم انتقل الى الجامعة المصرية القديمة ثم زاول التعليم بمدارس
« الفرير » حيث تعلم الافرنسية ، وأخيرا دخل مدرسة الحقوق الفرنسية ،
وأدى الامتحان النهائي بباريس سنة ١٩٢٦ وقد عمل رئيسا لقسم اللغة
العربية لجامعة بالاشتراك مبرا عين سنة ١٩٢٩ أستاذا للادب العربي في
دار المعلمين العليا ببغداد وعاد سنة ١٩٣٢ حيث أصدر الرسالة التي ظلت
تصدر عشرين سنة .

وقد كانت حياته الادبية فضالا دائما ، واتتاجا متواصلا وبخاصة —
في تحرير المقالات الادبية والاجتماعية التي كانت تصدر على صفحات
الرسالة ، والى جانب ذلك أعطى قصصا مترجمة كان لها شأنها في التعريف
بالادب العربي ، والتمثيل للترجمة المتقنة الامينة ، ساعده على ذلك ما
ورثه — بحكم دراسته الازهرية — من علم دقيق ، وفقه صحيح وتبصر
عميق بأسرار اللغة ، ومحاسن التعبير ، وما تلقاه ، بعد ذلك ، من لغة
أجنبية ، فتحت له آفاق المعاني ، وأطلعته على خزائن الاداب الغربية ، فكان
بذلك مزدوج الثقافة ، يلائم بين ثقافتين مختلفتين ، وأسلوبين متناقضين ،
لكن من محاسن نصيبه ان الثقافة الغربية لم تستطع أن تطمس على ثقافته
العربية ، ولم تقدر ان تلفته عن طرائقها البلاغية : وأنما ساعدت على
تمكينها ، وامدادها بأفكار جديدة تغنيها ، وأساليب فاتنة تحسن أسلوبه
العربي .

آثاره

تاريخ الادب العربي :

لم يصادف كتاب في بحوث تاريخ الادب العربي من الذبوع والشهرة ما صادفه هذا الكتاب فقد مرت حقبة طويلة ، كان فيها المرجع الوحيد لطلاب الادب والناشئين فيه . وقد زاحم كتابا مشهورا قبله هو « الوسيط » لكن جفاف « الوسيط » وبعده عن الاسلوب الادبي جعلاه يتخلى عن الساحة لهذا التاريخ الجديد . وهو معرض حافل بتراجم الادباء ، ونماذج من آثارهم منذ الجاهلية حتى بواخر العصر الحديث . أما التراجم فهي ليست من الافاضة والاحاطة ما يصح ان تسلكها في الدراسات العميقة ، لان اكثرها يعتمد على آراء سابقة ؛ أعاد المؤلف سبكها ، واضفى عليها نظرة التعبير ، ولكن الشيء المبتكر في دراساته تلك المقدمات الرائعة التي حلل بها العصور الادبية ، وكانت منطلقا للذين يؤرخون الادب .

دفاع عن البلاغة :

وترك الزيات في معرض النقد والادب كتابين جليلين هما « دفاع عن البلاغة » و « في اصول الادب » . أما الاول فعنوانه يدل على مضمونه ، وفيه يكرس قلمه للدفاع عن البلاغة العربية التي أرادت بعض الاقلام النيل منها ، ومن كان كالزيات في رهافة حسه ، والتزامه لقوانين الفصحى ، يعز عليه أن يدعو الى تشويه هذه البلاغة الموروثة بعض الادعاء في الادب .

في اصول الادب :

وأما كتابه الثاني فهو مجموعة محاضرات ومقالات ودراسات تهدف الى توضيح اصول الادب وأغراضه وأساليبه وفهونه ، وقد انتهت هذه

المجموعة بأول دراسة عربية لاصول المسرحية ، وبعض نماذج منها عند
الغريبين •

وحي الرسالة :

وهو مجموع ما كتبه الزيات على صفحات الرسالة من مقالات مختلفة،
وهي التي تجعله في طليعة كتاب المقالة الادبية في هذا العصر ، ولا شك أن
المجلة وحدها هي التي صرفته نحو هذا الفن ، لان لقاءه الاسبوعي مع
القراء كان يفرض عليه ان يكتب مقالة الاسبوع •

وهذه المقالات هي التي تبين عن نفسية الكاتب ، وتومي الى مذهبه
في الادب والحياة ، ومنها تتكون رسالته الادبية ، وهي مقالات متنوعة
كان يملئها عليه شعوره الادبي ، واحساسه الاجتماعي ، حتى باتت
بمناسبتها المحدودة شبه سجل لما كان يضطرب في عصره ، في كل قطر من
الاقطار العربية •

مجلة « الرسالة » :

صور الاستاذ الزيات في العدد الالف من مجلة الرسالة العوامل التي
دفعته الى انشاء الرسالة بقوله :

« في ذات عشية من عشايا نوفمبر سنة ١٩٣٢ زرت أخي الدكتور
طه حسين في داره بالزمالك ، وكنت منذ اربعة أشهر قد رجعت من العراق
بعدها أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد ، وكان قد أنزل عن كرسيه في كلية
الاداب من جامعة فؤاد ، فقلت له بعد حديث شهني من أحاديث الذكرى
والامل •

— ما رأيك في أن تصدر معا مجلة اسبوعية للادب الرفيع ؟

فضحك طه ضحكته التي تبثديء بابتسامة عريضة ، تنتهي بتهقئة
طويلة ، وقال :

— وهل تظنك واجدا له قراء في مجتمع ثقافته خاصة أوروبية ،

وعقليته عامة أمية ، والمذنبون بين ذلك لا يقرؤون — اذا قرءوا — الا
المقالة الخفيفة ، والقصة الخلية ، والنكتة المضحكة •

قلت :

— لعل من بين هؤلاء وهؤلاء طبقة وسطى تتطلب الجد فلا تجده ،
وتستهي النافع فلا تناله • فقال ، وهو يطم شفتيه :

— حتى هذه الطبقة ، ان كانت ستقبل على الجد النافع أول الامر
لانه تغيير وتنويع ، فاذا ما ألح عليها لا تلبث أن تسأمه وتزهده فيه •••
واذا كنت مصرا على ذلك فشأنى هو المقال الذي اكتبه ، والرأي الذي
أراه •••

وكان يظاهرني في تفاؤلي أصدقائي الادنون من لجنة التأليف
والترجمة والنشر فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد •

وأخيرا تغلب العزم المصمم على التردد الخوار • فصدرت الرسالة
صدرت قوية بالروح ، غنية بالمادة ، فتيه بالامل ، فكانت — ولله الحمد —
حدث العام ، وحديث الناس ، صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدته •

ولم تكن في مصر — حين صدرت الرسالة — مجلة أدبية تعالج فنون
الادب العالي ، وتقدر تتاج الاديب الحق ، وتقضي حاجة القارئ الجاد ،
انما كان الادب السامي حينئذ خبيء الصدور ، وجبى المكاتب ، فلم تك
تخرج الى الناس حتى اختشدت فيها القوى المدخرة ، وظهرت على
صفحاتها الملكات المستترة ، فلم يبق في العالم العربي صاحب ثر وشعر
الا أشرق عليها عقله ، وانتشر مع انتشارها فضله ••• »

هذا هو تاريخ ميلاد الرسالة التي مر عليها زمن كانت فيه أم المجلات ،
ومهى الافئدة ، وملتقى الافكار على اختلاف الاقطار •

وقد وضع الاستاذ الزيات غاية المجلة في العدد الاول بقوله :

« ان غاية الرسالة هي ان تقاوم طغيان السياسة بصقل الطبع ، وبهرج

الادب بتشريف الذوق ، وحيرة الامة بتوضيح الطريق ان مبدأ الرسالة هو ربط القديم بالحديث ، ووصل الشرق بالغرب ، فربطها القديم بالحديث تضع الاساس لمن هار بناؤه على الامل ، وبوصلها الشرق بالغرب تساعد على وجدان الحلقة المفقودة »

وفي الحق أن الرسالة لم تكد تظهر حتى اجتمعت عليها أقلام الكبار من الادباء ، وتوافدت اليها أقلام الناشئين ، يلقون منها التشجيع . ولست بذاكر واحدا من هؤلاء الادباء المعلمين الا كانت الرسالة في يوم من الايام مجتلى قلمه ، وساحة تفكيره ، فمن الكتاب الدكتور طه حسين ، وأحمد أمين ، ومصطفى صادق الرافعي ، وعباس محمود العقاد وابراهيم المازني ، وزكي مبارك ومحمد عوض محمد ومحمد عبدالله عنان وعبد الوهاب عزام ومحمود تيمور والدكتور احمد زكي وفخري ابو السعود والدكتور محمد مندور و خليل الهنداوي وعلي الطنطاوي ومن الشعراء علي محمود طه ومحمود غنيم ومحمود الخفيف وأنور العطار وأمجد الطرابلسي .

وقد جاء في كتاب « المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر » أن الرسالة قد تميزت باللون العربي والطابع الاسلامي ، وحملت الرسالة علم مهاجمة كل دعوة ضد العروبة والاسلام . وبدأنا - بتأثيرها - نقتدل ونلم بأطراف الامور ، فلا نسرف في ازدراء الادب العربي ولا العروبة ، ولا نسرف في الدعوة الى الاخذ من التراث الغربي الا في حدود ضيقة .

وقد عالجت الرسالة الكثير من القضايا الادبية ، ومن ذلك قضية المنهج الادبي والنقد ، واختلفت على هذه القضايا نظرات كثيرة ، باعتبارها كانت مجمع مدارس ومذاهب مختلفة كما حاربت انحراف الادب عند الذين يزعمون أن قواعد اللغة قيود لا توافق حرية العصر ، واساليب البلاغة عوائق لا تجاري ، وكلها معاذير واهية لا تغني عن الادب الصحيح .

وكان لها فضل على نشأة كثيرين من الادباء في مراحلهم الاولى كما أعلن بعض دعاة القومية العربية أنهم تأثروا بالرسالة ، وكونوا ثقافتهم في بوتقتها .

أدب

كان ذلك شأن مجلة الرسالة ، فما شأن صاحب الرسالة ؟

لعل الامر الذي ساعد صاحب الرسالة على التوفيق ، في حين أن الاخفاق كان نصيب غيره ، هو انه نذر نفسه للادب وحده ، وتجرد من كل هوى وحزبية ، فتلاقت الاقلام على مجلة متسامحة متصافحة • وقد صور الزيات مذهبه بقوله :

... « أنا منذ حملت نصيبي من عبء الحياة أحرص على أن استقل في عملي عن ارادة الغير ، وأستغني بقدرتي عن معونة الناس • فلم أضع يدي ولا عنقي في اغلال الوظيفة الحكومية ، ولم اصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من قوى السلطان والحكم ، وانما اضطربت في مجالي الحيوي طلقا من كل قيد الا قيد الخلق ، ومستقلا عن كل عون الا عون الله •

لم أدخل في حزب ، ولم أقف على منبر ، ولم أظهر في جريدة • على أنني نلت شرف الجهاد في الثورتين المصريتين • فكنت في الاولى جنديا مجهولا اكتب المنشورات الثورية السرية للطلبة ، وأنا مدرس في الاعدادية ، وكنت في الاخرى وطنيا معروفا أوقف الوعي القومي ، وألهب الشعور لوطني ، وأنا كاتب في مجلة الرسالة »

وفي الحق ان شخصية الزيات الادبية تتبدى بأجلى مظاهرها في هذا اللون من المقالات المنتابعة التي كانت رجات أدبية ، وقومية ، واجتماعية ، تملك قوة التأثير باعتبارها فنية من الطراز الرفيع ، وكشحنة وجدانية تدل على الشعور الصادق •

وقد تناولت هذه المقالات موضوعات مختلفة منها المقالة الوطنية والمقالة الاجتماعية ، والمقالة الوجدانية ، والمقالة القومية ، الى صور متنوعة لادباء وعظماء يصح ان توضع الى باب السير والتراجم وأن تعتمد للدراسة . وكل مقالة من هذه المقالات لوحة أدبية مشرقة ، زخارة بالحياة تسجل خفقة من خفقات الحياة والفكر في العصر ، والميقات الذي كتبت فيه .

المقالة الوصفية :

أما مقالاته الوصفية فقد كان أكثرها مجلى للطبيعة الحية ، ترسم عليها السماء والظلال والالوان واضحة مشرقة ، واذا كان بعضها يميل الى التصوير الضاحك - كما نرى في وصفه للربيع ، وشم النسيم ، وليالي الحصاد - فان بعضها يميل الى التطوير القاتم ؛ من نحو ما كتب عن القرية البائسة ، والقرويين الاشقياء في احضانها وهو - باعتباره قرويا - تثيره القرية ، وما تعانیه من طغيان الاقطاعي ، واهمال الحكام ولذلك يلح على الدعوة الى استنقاذ القرية من البؤس والشقاء ، مينا منزلة هؤلاء الفلاحين المهملين في بناء كيان الامة ، وبذلك مهد لثورة الفلاحين على مالكيهم ، وأعد الافكار لانصاف القرويين الذين يزرعون ولا يأكلون ، ولا يضير الكاتب انه كان يذهب الى غايته مذهبا وجدانيا ؛ لان يقظة الوجدان في الافراد والامم هي الطريق الى يقظة الفكر والوعي الاجتماعي .

ومن ذلك وصفه لحالة القرية :

« لا تزال القرية كما كانت في القرون الخوالي أكواخا متلاحقة غرقى في المناقع والدين ، لا تبصر الشمس ، ولا تنشق الهواء ، ولا تعرف النظافة . تكومت في قاعها أرواث البهائم ، وزرق الدجاج ، وتراكم على سطحها حطب الوقود ، وعلف الماشية ، وتقاسم الانسان والحيوان المضاجع في هذه الحظائر المشتركة . ثم راض الفلاح نفسه مرغما على الطعام الوخيم ، والشراب الكدر ، والملبس الرث ، والقناعة المزرية ، حتى مات في حسه ادراك الجمال ، وتفه في ذوقه طعم الوجود .

ذلك . . . والعواصم المصرية تعيش في القرن العشرين تأخذ بمدينة ،
وتقبس من نوره ، وتنعم برفاهه . كأن الصلة بين القرية والمدينة هي الصلة
التي كانت بين العبد والسيد . يملك ، ولكن ملكه لمولاه ، وينتج ، ولكن
اتجاهه لسواه »

المقالة الاجتماعية :

وأما مقالاته الاجتماعية فقد تصدت - في كثير من الاحيان - الى
اخطر العلائق الاجتماعية في حياتنا ، وعالجتها بروح متمردة ، واعية منصفة ،
وبينما كان رجال السياسة والادب في مصر يعالجون القضايا - على مستوى
ضيق بعيد عن حياة الشعب ، نجد الزيات يدخل في صميم المجتمع ، ويكشف
عن عيوبه ، ومخاريه ، ولا نجد كاتباً قبل الزيات اتخذ من الفقر والغنى
موضوعاً ألع عليه ، ليخرج منه الى تحقيق العدالة الاجتماعية التي كانت
حلماً من الاحلام . وقد عالج هذا الموضوع - آناً - بتجرد ، وآناً
بتصويره شخصيات بائسة ، تعاني من الحياة ، ما يجعل الحياة لعنة على
أنفوسها .

وهو - اذ يعالج هذه الناحية - لا يكتفي بفرض المعونة والاحسان
الى الفقراء ، وانما يجعل الدولة مسئولة عن مصير هؤلاء البؤساء ، فلماذا
تثبت نفسها للاغنياء ، ولا تثبت نفسها للفقراء .

ويكفي الزيات فضلاً أن يكون هو صاحب الصيحة المدوية التي رفعها
الى كل مسئول في الدولة :

ثوروا على الفقر قبل أن يثور واستعدوا للدائرة قبل أن تدور .
ولكن المسؤولين في ذلك العهد استخفوا بهذه الصيحة ، وحسبوا
فلتة على لسان ، أو زخرفاً من قول ، فناموا عن الفقر ، حتى ثار ، فاذا
هو يطويهم في جوانبه ، طي العاصفة للسحاب .
كما عالج الزيات قضية المرأة ، ودعا الى تحريرها ، وظهورها في
المجتمع ، لتكون لها رسالتها كما للرجل رسالته .

واستغل - في مقالاته الدينية الاجتماعية - مناسبات أيام الذكرى
ليجعل منها مظاهر اجتماعية تؤدي معناها الاجتماعي الصحيح فيقف يوم
الجمعة الذي هو يوم راحة ، حين يقابله بيومي الاحد والسبت « بأنه
أصبح طرفا في ذيل الاسبوع ، فلا تخشع له أسواق العالم كيوم السبت ،
ولا تسكن له حركة الدنيا كيوم الاحد ، ولا يبقى له من الرعاية عند أهله
الا اغلاق دور الحكومة في وجهه ... تراه يوما يجيء خافض الجناح خافت
الصوت ، حائل اللون ، منموط الحق ، لا يدخل في حساب الناس ، ولا
يقدم ولا يؤخر في حياة المجتمع ... يصبح المسكن الاسلامي فيه عابسا
كالكهف ، ساكتا كالمقبرة » .

كما أولى اهتمامه بالطفولة المعذبة ، ودعا الى استنقاذها من البؤس
والشقاء ، وعالج الفردية الضيقة التي هي علة مجتمعا ، وعالج داء الوظيفة
التي كان ينفر منها بطبعه ، ويعدها قيда مكبلا للحرية والموهبة .

المقالة القومية :

كان الزيات يعتقد بأن غاية الادب يجب الا تقتصر على الادب وحده
وانما هو مظهر للأفكار والحاجات كلها . ولذلك نراه لا يكاد يترك مناسبة
قومية الا وأقبل عليها بقلمه ، يشير أسبابها ، وينفخ الروح في النفوس ،
وكانت هذه الرسالة ترمي الى الفكرة العربية ، وتدعو الى الجامعة العربية،
يوم كانت العروبة حديثا مكتوما ، وكانت الجامعة العربية حيننا في بطن
الغيب .

وقد راعه ان يرى في قومه من يعتنقون القومية الضيقة المشدودة
بروح اقليمية فأعلن عليهم حربا لا هوادة فيها ، ونال بقلمه من «الفرعونية»
ما لم ينله أي مذهب سياسي .

وها هوذا يقول في مقالته الذائعة « فرعونيون وعرب » :

« لا تستطيع مصر الاسلامية الا ان تكون فصلا من كتاب المجد
العربي ، لانها لا تجد مددا لحياتها ، ولا سندا لقوتها ، ولا أساسا لثقافتها

• الا في رسالة العرب •

أنشروا ما ضمت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور
الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من أكفان
الماضي الرميم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الآثار ، وعظمة النيل
وجمال الوادي وحال الشعب ، ولكن اذكروا دائما أن الروح التي تنفخونها
في مومياء فرعون هي روح عمرو ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر
هو لسان مصر ، وأن القيثار الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار
امريء القيس ، وأن آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ
السطور ، وتغذي العالم هي أدعى الى الفخر ، وأبقى على الدهر ، واجدى
على الناس من صفائح الذهب ، وجنادل الحجارة • »

وقد خص نكبة فلسطين بمقالات هادرة جمعت بين صدق الايمان ،
وحس الفاجعة ، ولوعة الضمير •

المقالة الذاتية :

وأما المقالات الوجدانية فهي تعبير ذاتي عما يحس به الزيات في قرارة
نفسه ، ولئن كانت المقالة الوجدانية ضيقة الحدود ، بما تلتزمه من التعبير
عن احساس ذاتية ، فانها تستطيع ان تمتد ، وتخرج من حدود النفس ،
حتى تصبح شعورا مشتركا بين الناس ، شأنها في ذلك شأن القصيدة
الوجدانية •

ولقد مرت بالزيات رزاء خاصة أصابت أوتار نفسه الشجية ، وأرزاء
عامة في الامة ، فأخرجها ألحانا مؤثرة •

ومن ذلك رثاؤه لولده رجاء :

« يا قارئ ! أنت صديقي مدعني أرق على يدك هذه العبرات الباقية !

هذا ولدي كما ترى ، رزقته على حال عابسة كاليأس ، وكهولة يائسة
كالهرم ، وحياة باردة كال موت ، فأشرق في نفسي اشراق الامل ، وأورق في

عودي اوراق الربيع ، وولد في حياتي العقيمة معاني الجدة والاستمرار
والخلود .

يا جبار السماوات والارض ! أفي مثل خفقة الوسنان تبدل الدنيا غير
الدنيا ؟ فيعود النعيم شقاء ، والملاء خلاء والامل ذكرى ؟ أفي مثل تحية
العجلان يصمت الروض الفرد ، ويسكن البيت اللاعب ، ويقبح الوجود
الجميل ؟ »

ومن ذلك وصفه للشاطيء الغريق . وقد طغى عليه النيل :

« هكذا الطغيان يا نيل ! يجعل مصدر الحياة مورد هلكته ، ومنبع
الخيرات مغيض بركته ، وأصل العمارة غاية دمار وخسر !

هذه شواطئك الخضر ، يا نيل ، كانت بالامس تتنفس بالنعيم ،
وتتدفق بالخير ، وتترقق بالجمال ، فأصبحت اليوم تختنق بالاخطار ،
وتلتطم بالمخاوف ، وتهدد الحقول الغنية الخصيبة بالفاقة والجذب .

وهؤلاء أبناءك الوادعون كانوا يتعهدون بالعمل الدائب غرسك
الزكي ، وثمرك الغالي ، ويسلسلون في الحقول نضارك الذائب ، ويستقبلون
بالشوق الامل موسمك الايب ، فأصبحوا — وهم من هولك قائمون على
رجل — لا يستقر لهم جنان من الروع ، ولا يطمئن بهم مجلس من الجزع ،
ثم أمسوا وهم محشودون بقوة السلطان على جانبيك ، يدافعونك مدافعة
العدو ، ويكافحونك مكافحة الوباء ... »

فن التراجيم :

وهناك صور رائعة يرسم في اطارها وجوه عظماء وأدباء بصورة موجزة ،
لا يفوتها المضمون الكبير ضمن التعبير الوجيز . واكثر هذه الوجوه وجوه
توارت عن الحياة في عهد الكاتب ، منها وجه العالم كالشيخ محمد عبده ،
ووجه الزعيم كمصطفى كامل ، وسعد زغلول ، ووجه الاديب كالمنفلوطي
والرافعي ، ووجه الشاعر كشوقي وحافظ وعلي محمود طه .. وتجدر —
خلال هذه الصورة — تحديا دقيقا مركزا للملامح كل رجل ، وتصويرا بارعا

لابرز خصائصه الادبية •

ومن ذلك حكمه على أدب المنفلوطي :

« وأما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقّقها امران : ضعف الاداة ، وضيق الثقافة ، فأما ضعف الاداة فلأن المنفلوطي لم يكن عالما بلغته ، ولا بصيرا بأدبها ، لذلك تجد في تعبيره الخطأ والفضول ، ووضع اللفظ في غير موضعه ، وأما ضيق الثقافة فلانه لم يتوفر على تحصيل علوم الشبرق ، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب ، لذلك نلمح في تفكيره السطحية والسذاجة •

فاذا قدر الله لادب المنفلوطي ان يفقد سحره وخطره في اطوار المستقبل فان تاريخ الادب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله في النثر ، كالبارودي في الشعر ، وكفى بذلك عنوان فضل ، وخلود ذكر • »
وهذا تصويره لادب شاعر العراق الزهاوي :

« ... والزهاوي ، بعد هذا ، وقبل هذا ، كان رسولا من رسل انفكرة الانسانية ، وبطلا من أبطال النهضة العربية ، كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة فتتردد اصداؤها الموقظة على ربوات ، بردى ، وخمائل النيل وسواحل المغرب • وأدب الزهاوي وامثاله هو الذي وصل القلوب الغربية في مجاهل القرون السود بخيوط الالهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم أن تتعارف ، وتتآلف ، وتتحالف ، ثم تسعى لتعود أمة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب أن تكون • »

وهذا رأيه في شوقي :

« اجتمع رأي المعاصرين على أن شوقي كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب ، لم يظهر فيها شاعر موهوب ، يصل ما انقطع به من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الادب ، ويحفظ للبيان اعربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبثة في الكون ،

واسرار الجمال المضرة في الطبيعة ، ومعاني الخير الغامضة في الحياة ••
وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق
ويسمو ، وشعر شوقي ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء
ما بقي العرب » •

وأما كلمته في صديقه الشاعر علي محمود طه فقد كانت حسرة طويلة،
ولهفة صديق على صديق ، قبل ان تكون كلمة اديب عن شاعر :
ومن ذلك قوله :

« أحقا ، رفاق علي ! لن تروه بعد اليوم يحيي المجالس بروحه اللطيف ،
ويؤنس الجلاس بوجهه المتهلل ، ويدير على السمارا كؤسا من سلاف
الاحاديث ، تبعث المسرة في النفوس وتحدث النشوة في المشاعر ؟

أحقا ، عشاق علي ! لن تسمعه بعد اليوم ينشد القصائد الرفيقة ،
ويخرج الدواوين الانيقة ، ويصور الحياة بالالوان من الشعر والسحر
والفتون ، في اطار من الجمال والحب واللذة ؟

أحقا ، أصدقاء علي ! لن تجدوه بعد اليوم يبذل من سعيه ليواسي
وينيل من جاهه ليعين ، ويجعل بيته سكنا لكل نفس لا تجد الدعة ولا
الانس ، ومثابة لكل طائر لا يجد الروضة ولا العش ؟

أحقا سكت البلبل ، وتحطم الجام ، وتقوض المجلس ، وانفض السامر
وتفرق الشمل ، وأقفر الربع ، وأصبح على طه الشاعر العامل الآمل أثرا
وخبرا وذكرًا ؟ » •

واذا رسم صورة زعيم كمصطفى كامل صور فيه القوة الشعبية :

« لقد كان يريد أن يقود لا أن يسود ، ويطلب أن يخدم لا أن يحكم •
والزعيم الحق هو الذي يدافع عن امته ، ولا يحاول أن يحكمها لانه متى
حكمها ادركته حقارة الانسان فاستطال وترفع •

وهكذا قضى الصديق في الجهاد والاخلاص للمبدأ على مصطفى

العليل الواهن ان يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويذكي خمود جيله
بحرارة دمه ، ويضيء ظلام وطنه بوميض روحه • »

ولعل هذا أخيرا ، مما عرضناه يكفي ان يقوم شهيدا ناطقا بالحق
لصاحب وحي الرسالة التي أشرفت على توجيه جيل قائم بذاته •

وللزيات راية خفاقة في عالم الترجمة والتعريب ، ولا سيما في بدء
تطوره الادبي ، وقد فتح له هذا الاق المامه الجيد باللغة الفرنسية التي
تعلمها وهو كبير • وقد راعه ما رأي من آثار الغرب الادبية ، فحث الخطا
على الترجمة • وهو — في ترجمته — غير المنفلوطي الذي كان يجهل اللغة
التي ينقل عنها ، ويكتفي بما ينقله اليه أصدقاؤه • وأصول الترجمة عند
الزيات تقوم على التبصر بالمعنى ، وأمانة النقل ، وقوة التعبير ، وحسن
الاداء • وقد قدم للادب العربي « آلام فتر » و « قصة روفائيل » وعددا
غير قليل من اقايصيص اكثرها « لغني دى موباسان » وقصائد من الشعر
الوجداني « للامرتين » و « فيكتور هيجو » ولئن فاتها ان تكون مقفاة
موزونة ، فان الجو الشعري الذي بناه لها المترجم بجرسه العذب ولفظه
الانيق ضمن لها جمال الصورة ، وصفاء التعبير •



هذه دراسة او المامة موجزة ببعض جوانب هذا الاديب الكبير الذي
مكنته الفرصة ، وروح العزيمة فيه ان يعيد للرسالة كيانها بعدما احتجبت
عشرة اعوام احتجاجا غلبه عليه الضيق والعسر •

وقد أعطى معاصروه أحكاما مختلفة على أدبه أثرتنا الاستشهاد ببعضها
لأنها تعكس نورا من احكام مختلفة ، وليس كالاديب يحكم على الاديب •

فهذا الشيخ المراغي شيخ جامع الازهر يقول فيه :

« لقد كنت في هذه الفصول مترجما صادقا منصفًا للتاريخ فيمن
ترجمت لهم من الرجال ، وكنت مصورا ماهرا فيما صورت من عيوب
المجتمع وآلام الحياة ••

كل اولئك بأسلوب رصين ، تقي الجوهر ، تتصل فيه بأسلافك
الاولين من فحول العربية والادب » •

وهذا الشاعر خليل مطران يصفه :

« التزمت ما لم يلتزمه غيرك من سلامة العربية ، وفصاحتها مع قربها
الى التناول ، بأصدق ما يكون البيان ، وأروع ما يأتي الاسلوب • وأمتن
ما تكون التراكيب » •

وهذا الاديب الناقد العقاد يقول :

« فأنت اسلوبك ، وأسلوبك أنت : اتقان ، واستحياء ، وسلاسة •
اتقان صيغة في غير ظهور ولا ادعاء •
واستحياء يخفي مزاياه •

وسلاسة تطوع العصي ، وتملك الزمام في الوعر والسهل على
السواء ... »

وهذا الاديب توفيق الحكيم يشهد له بقوله :

« وليست هذه هي المرة الاولى التي اتعرف فيها الى سمو أسلوبك
وبلاغة تعبيرك واتساع أفق خيالك •

فهو في الواقع مجموعة دراسات عميقة ، ناضجة للمجتمع ، وتصوير
بارع للتطورات الخلقية والنفسية ، واشارات دقيقة ، وجولات موفقة في
الادب والحياة ... »

فلتكن ذكرى للماضي ، وعظة للحاضر ، وإيماناً بالمستقبل

وكتب اليه الدكتور زكي مبارك :

« ويمتاز كتابك بميزة أصيلة : هي تصويره لاكثر ما يحيط بهذا
العصر من مشكلات عقلية ، ومعضلات ذوقية ، فهو سجل لحوادث عاناها
المجتمع ، واضطرم لها روحك الامين •

قد قال بعض الناس : انك كاتب متألق ، وذلك باطل يراد به حق ،
فالكتابة الرقيقة فن جميل لا ينفع فيه الارتجال ، والكاتب الحق لا يعرف
عفو خاطر ، وأن أحب ان يوصف بذلك . وانما ينقل الى سنان القلم لو
اعج عاناها الفكر والروح في أعوام طواله . وهو كالشجرة التي تختزن
ثمارها الى ان يحين الموسم المنشود ، فلا تحاول التعت على من يصفك
بالتألق ، لان التألق من صور الاهتمام . . . »

وهذا محمود شاكر يصفه ويصف أدبه :

« . . . وهو روح هادئة ، منكئة ، مسترسلة ، يمشي هادئا ، ويفكر
ساكتا ، ويحاسب نفسه ، ولكن على التسامح والرضا والاستسلام .

لفظه مبني على الايجاز ، وعلى مذهب الحكمة .

لا تجد الا عريية خالصة : مطواعة ، لينة ، لا ينافر حرف فيها حرفا ،
على كثرة الاغراض التي رمي اليها . . . »

وهذا بشر فارس يقول :

« في فصول هذا الكتاب (وحي الرسالة) تصيب المنحى الحسن ،
والتنسيق المطرد ، ثم اللفظ المتخير ، والسبك المحكم الى جانب التبصر .
فيه انشاء ونقد ووصف ونظر في الحياة الجارية . . . »

ولا ينسى بشر فارس أن يحدد ملامح مجلة الرسالة بقوله :

« انها معترك الحركة الادبية من وحيه تسجل مجرى الادب ، ومن
وجهه تعرض المستحدث منه ، فحظها الركن والوثوب معا ، ويعين على ذلك
ان أقلام كتاب الرسالة متغايرة في التشقف والمضاء ، وأن فيها أبوابا ساكنة ،
واخرى مائجة »

ووصفه الاديب اسماعيل أدهم بقوله :

« الزيات-اديب فنان ، يحسن ابراز الحياة التي في الاشياء بالفكرة

التي تنطوي عليها ، وبالعاطفة التي تحملها في طياتها ، وبالخيال الذي تحتوي عليه • يلبس فكرته واحساسه وخياله اللفظة الخاصة بها ، التي تعطي لونها من لغة الكلام »

وجاء في كتاب « المحافظة والتجديد في النشر المعاصر » رأي صاحبه أنور الجندي :

« والزيات كاتب أصيل في ميدان القومية العربية ، والدفاع عن الاسلام ، والجمع بين الادب العربي والادب الغربي على هدى وبصيرة • وهو واحد من مدرسة العناية باللفظ الموثق ، والعبارة العالية • جدد روح الادب ، وسار في طريق المنفلوطي مع عناية بالمعنى ، واشراقة في النظرة الى الحياة ، وعمق في فهم المشاكل ودراستها » •

لعل هذه الدراسة الموجزة التي عرضناها كافية لاعطاء ملامح بارزة لصاحب وهي الرسالة وخصائص أدبه ، وممهدة الطريق للقارئ الى أن يستمتع الان وحده ببعض روائع هذا الاديب •

مَقَالَاتُ وَصَفِيَّة

الخريف في الرّيف

دعنا الان من القاهرة ! فبشرها بالاسم قد استسر في قطوب الطبيعة ،
وشجرها الوارف قد اقشعر من رياح الخريف ، وهدوؤها الناصر قد غاب
في صخب الفتنة • وكأنما خفقت في جوها المستنير الصافي أبابيل سود من
طيور الليل !

دعنا الان من القاهرة ! فقد أصيب علمها بداء السياسة ، ونكب رأيها
بتدليس الهوى ، وامتنحن خلقها بشهوة المنفعة ، وكأنما فرغ القادة من جهاد
الاجنبي ليشوي بعضهم بعضا في حريق الوطن !

دعنا الان من القاهرة ! وتعال نرفه عن حواسنا وأعصابنا في سكون
الريف الامن ، وفي كنف الفلاح المؤمن ، حيث الهوى جميع والخريف
ربيع والطبيعة الكهلة رواء وغناء وسحر !

يقول هوجو : « ان الخريف هو الربيع انبعث من القبر نائرا حلاه
وحلله » • ولكن الخريف المصري في الربيع الحق في نضرتة وزينته وعطره
ا. فيينا ترى الحقول المتصلة في بياض الدمقس ^(١) أو صفرة النصار
يجردها ايلول من القطن الحريري الاشوك والرز العسجدي الهائج ^(٢)
اذابها في خضرة السندس او زرقة اللازورد ، يكسوها تشرين أعواد الذرة
اللفاء وقصب السكر الوريق ونبات البرسيم المؤزر ^(٣) فأينما أدت بصرك
لا تجد الا رياضا شجراء ، ومروجا فيحاء • ثم ترى النيل في أعقاب فيضانه

(١) الدمقس : الحرير الابيض •

(٢) الهائج من النبت : اليابس •

(٣) أزرق الزرع بعضه بعضا : تلاحق والتف فهو مؤزر •

كذوب التبر ينساب هادرا في الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول وحفا في الطرق وحواشي الغيطان سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب ، وتنزل على الفلاح المكدود سكينه الرضا والامل ، فينقلب شاعرا يتهادى في ظلال الذرة الخفاقة ، على مدرجة الطريق المخضوضر ، وفكره مستغرق في الله الذي يضع البركة في غيظه ، أو في المرأة التي تجلب السعادة الى بيته .

ها هو ذا بعد صيفه الجديب المجهد يستنشق نسيم الراحة بين أولاده على مصطبة الدار ، او بين بهائمه على رأس الحقل . ويتربص بقطنه المخزون الثمن الربيع ، ليقضي دينه فيستريح ، ويزوج ابنه فيفرح ، ويمحو مرارة الافواه بالرمان والبلح . وترى القرية بذكورها واناثها تعيش في فسحة هذا الامل ودعة هذه الحياة وبهجة هذه الحقول في فيض من الرخاء والغبطة لا يسممه كيد ولا تكدره منافسة .

خريف الريف وربيعه يتفقان في الخصوبة والبهجة ، ويختلفان في الحيوية والطبيعة ، فبينما تجد ربيع (نيسان وأيار) موارا بالحياة ، فوارا بالعاطفة ، هدارا بالهتاف يجعل من كل حي حركة لانتي ورغبة لا تخذل اذ تجد ربيع (تشرين وكانون) ساجي النهار سجسج الظل ساكن الطائر ينفض على كل امريء دعة الطمأنينة وسكون التأمل وروعة العبادة . فالمشية وئيدة الخطوات ، والوقفة بعيدة النظرات ، والجلسة طويلة الصمت ، والشبان والشواب يتبادلون التحايا بغمز العيون واقرار الشفاه ، كأنما هم وهن نشاوى من رحيق عجيب يعقد الالسن ولكنه ينعش الروح ويوقظ القلب ويسط المشاعر !

أي جمال أملك للنواظر والخواطر من جمال السماء الريفية وقد زينتها رياح الخريف بقزعات (١) من الغيم الرقيق كأنها القطعان البيض ترتعي في المروج الخضراء ؟ هذه السماء بألوانها السحرية المختلفة التي

(١) القزعات : قطع من السحاب متفرقة صغار .

تتعاقب عليها بتعاقب الساعات ، تنطبق على أرض كرقعة الفردوس لا ترى فيها خلاء ولا عراء ولا وحشة ، ولا تسمع فيها لغوا ولا تأثيما الا هتافات الطير الحائمة على أعذاق^(١) النخل الياقة وسنابل الذرة النضيدة ، والا شدوات الرعاة قد كوموا الحشيش امام الماشية وتحلقوا حول النار المشبوبة يشوون عليها أمطار الذرة^(٢) وصغار السمك ، ثم يأكلون ويفنون في لذة وبهجة !

(١) الاعذاق جمع عذق : وهو من النخل كالعنقود من العنب .
(٢) الامطار : جمع مطر بضم الميم وهو كوز الذرة .

الراديو والحكايات

ألفت منذ سنين أن أزور شهر رمضان في ربوعه الاصيله ومغانيه الباقية . ومن لم يشهد رمضان في حي الحسين ، أو في حي الحسينية ، أو أمثالهما من الاحياء القديمة لم يشهده في قداسته المهيمة وجلالته الباهرة !

كنت في احدى ليليه الزهر أخرج متى استيقظت المشاعر من فترة النصيام وسكرة الطعام ، فأعبر القرون العشرة التي تفصل بين القاهرة الملك فؤاد وقاهرة الخليفة المعز ، فأجد رمضان العظيم قد نشر بنوده وأعلن وجوده في كل شارع وفي كل منزل ! فهو خير يتدفق في البيوت ، وبشر يتهلل في الوجوه ، وأنس يتطلق في المجالس ، وذكر يتضوع في المساجد ، ونور يتألق في المآذن ، وسمر يتنقل في الاندية ، ونفحات من الفردوس ترطب القلوب وتلين الاكباد وترف على ما ذوى من العواطف .

فالحوانيت سامرة وان لم تبع ، والمصانع ساهرة وان لم تنتج، والابهاء عاطرة بحديث الاحبة حتى نصف الليل ، والافنية عامرة بذكر الله حتى أول السحر . أما كثرة الناس فقد أخذوا مجالسهم من قهوات الحي وباتوا ينضحون « مزاجهم » الظاميء بالفناجيل الروية ، ويشققون أحاديثهم الطلية بالنكات المصرية ، ثم يستمعون في خشوع العابد وسكون العاشق ولهفة الطفل الى القصاص ، وقد طوفت به أشباح القرون ، وغمغمت في صوته أصداء الزمن ، يتربع في صدر المكان منصة عالية من الخشب العتيق وهو في سمته وهندامه ، ولهجة كلامه وطريقة سلامه نموذج العامي الاديب ، ومثال الحضري المثقف : حفظ كثيرا من الاشعار فاكتسب ظرف الادب ، وروى صدرا من الامثال فاكتسب وقار الحكمة ، ووعى طائفة من الاخبار فانسم بركة المنادمة . وهو الى ذلك بارع النادرة ، دقيق الفطنة ، عذب

المفاكهة ، حاضر الجواب ، يؤدي الى هذا الجمهور الغرير الساذج دعوة
الواعظ وامانة المعلم ورسالة الاديب •

ها هو ذا قد فزغ من احتساء القهوة ، وجباية النقوط ، ومبادلة
السامع المعتاد جميل التحية ، ومسارقة الزائر الممتاز رغب النظر ، ثم اخذ
يحتفل بالقصص او الانشاد ، فاحتبست قهقهة (النكتة) ، وانقطعت كركرة
(الترجيلة) ، وانتشرت سكيئة الجد في القهوة ، واتجهت عيون الجمع الى
المنصة • ثم رن في سكون القوم ذلك الصوت العريض المتزن يرسل الكلام
والانغام في ترجيع مؤثر وتقطيع معبر وتنويع مطرب • فهو يفخم ويرقق ،
ويقسو ويلين ، ويأنف ويستكين ، ويثور ويهدأ ، ويسخط ويرضي ، ويتدل
ويتذل ، ويتحمس ويتغزل ، كأنه في تعاقب أولئك كله على لهجته وهيئته
الاوتار الطيعة تحت الانامل اللينة البارة ، فيملا الاذان بالنغم ، والاذهان
بالفكر ، والقلوب بالشوق ، والمشاعر باللذة •

★ ★

ذهبت ليلة أمس على عادتي أرود المعاهد وأجوس الديار وأستشي ما
بقي على اطراف الزمن من عمير الفاطميين ، فوجدت القاهرة الشرقية لا تزال
تتحدى القاهرة الغربية بمساجدها ومدارسها ومستشفياتها وحماماتها
وأسواقها ، وتعلن بشهادة هذه الاثار ان حضارتها العربية الخالصة انما
كانت تقوم على الدين والعلم والمدنية والانسانية والعمل ، وتزعم بأدلة
الاختبار ان هذا المظهر الحسي القوي الرائع الذي يميز حضارة الشرق
انما يرجع الى ان هذه تقوم على الروح ، وتلك تقوم على الالة ، وهذه
تصدر عن العاطفة والايتار ، وتلك تصدر عن المنفعة والاثرة • والميزة التي
ينبغي ان تكون لحضارة على حضارة انما هي ضمان السعادة للناس
وتحقيق السلام للعالم •

ولكن أين صديقي الشاعر وأين اخوة القصاص ؟ هذا هو الحي وهذه
هي القهوة ، وهؤلاء هم الناس ، ولكنني وجدت في مكان الاريكة للنجدة
والحلة المفوفة والعمامة الفردة صندوقا من الخشب دقيق الصنع أنيق

الشكل ، قد علق بالحائط فأغنى غناء القصاص وأبلى بلاء الشاعر !

تركت هذه القهوة ومضيت أتحسس في زوايا الحي وحنايا السوامر
ذلك الصوت الذي كان ينبعث من جوف الماضي السحيق شاديا بالمجد
والنبل والبطولة فلم أجد له - وأأسفاه - جرسا ولا صدى !

لقد هزم هذا الراديو ذلك الحكواتي في كل قهوة كما هزمت الآلة
الانسان في كل عمل . ففي كل قهوة من هذه القهوات (البلدية) آلة من
هذا الاختراع العجيب تغري الاذواق العامية بالفن ، وتروض الاذان
العصية على الموسيقى ، وتنبه العقول الغافلة الى العلم ، وتحجب النفوس
المستهترة في الادب . فهي تقرأ القرآن وترسل الالحان وتذيع العلم وتشيع
اللهو وتنشر البهجة !

ان مخاطر الشهامة (لابي زيد) ، ومواقع البطولة (لعنترة) ، ومواقف
النبل (لسيف بن ذي يزن) ، أصلح لتهديب العامة فما أظن مما يثبه المذيع
كل يوم من النوادر الوضيعة ، والاناشيد الخليعة ، والالحان الرخوة !

(٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣٤)

في الأقصر

سار بنا القطار المثقل ، وكان المفروض على راكبه ان يبيت قائما في
الممشى أو نائما على (الرف ^(١)) ، أما الجلوس اذا أراد فلا سبيل اليه
اذ لا محل له ! وكان من الميسور تلطيف هذا المقدور بشيء من لهو الحديث
لو جمعنا الحظ العنيد برفقة من أهل الانس ، ولكنني كنت أنا وصديقي
بين أربعة لا يصل أحدهم بالآخر سبب من جنس أو لغة ، فحملونا مكرهين
الى الفراش النابي والوساد القلق ...



القطار الجاهد يخوض في أحشاء الليل المظلم ، والهواء البارد يسفي
غبار الطريق الخائق ، والركب المترجح يغط في النوم غطيظ الخلي ، والكري
الجائر قد غلبني على أخوي فأوى بهما الى المضجع ! وأنا وحدي في هذا
التقص الطائر أرعى نجوم الكهرباء في سماءه المحصورة الرفيعة ، وأقول في
آخر ليلة من ليالي رمضان المحتضر : متى يا اله الناس يصبح هذا الليل ؟!

وأخيرا أخذ نور المصاييح الزاهر يشحب قليلا قليلا ، وستر الظلام
الصفيق يرق على جوانب القطار شيئا فشيئا ، وأنفاس الفجر الندية تخلص
الي من خلال النوافذ . ففتحت الشباك القريب وأرسلت طرفي الكليل في
شمال الوادي ، فرأيت رؤوس الشجر الرفيعة ^(٢) وذوائب النخل الرفيعة
طافية في سيل من الضوء المشوب المبهم ، وتبينت القرى الجائمة على
الضفاف الخضر تستيقظ مطلولة الجنبات مع الطبيعة ، والصبح الوليد

(١) المراد بالرفوف أسرة ضيقة مشدودة الى حائط الغرفة بعضها فوق بعض .

(٢) الرفيف من الشجر ما يقطر بالندى .

بهتك عن مهدد الوردى كلة (١) السحر الداكنة ، وأبصرت من وراء (قنا) خطا من ذائب المرجان قد ارتسم على قمم الجبال اللوية ؛ ثم أخذ ينتشر رويدا على الظلال المتخلفة من بقايا الليل حتى غمر الوادي ، فاستبان في سهوله الخصبة حقول القمح والقول والعدس يكللها الطل ويهفو فوقها رقيق الضباب •



أشرقت الشمس علينا كما كانت تشرق منذ آلاف السنين على سיתי ورمسيس ، فهي وحدها المخلوق الذي شهد ضخامة الماضي ويشهد الآن ضآلة الحاضر ! فليت شعري ماذا تقول ذكاء (٢) في هؤلاء الاقزام الذين يحجون اليوم (طية) مختالين على مركب ليس لهم في صنعه قسطن من حديد ولا خشب ؟ ماذا تقول ذكاء وقد رأت ملوكنا العمالق وهم في طفولة البشرية ينقلون قطع الجبال من أدنى الشمال الى أقصى الشلال على عجلات والات من خلق عقولهم وصنع أيديهم ، ثم ترانا معشر الاعقاب نلوك الفخر أمام الغربيين بعظمة الاقدمين ، وتبجح أمام الاقدمين بعبقريه الغربيين ، فنحن كخلفة الدوحة العتيقة تنبت رخوة على جوانب الجذر الثابت ، ثم يقعد بها الوهن عن مطاولة الجذع ، فلاهي في رسوخ الاصل وقوته ، ولا هي في سموق الفرع واشرافه •



لا يكاد الصعيد يختلف اليوم عما عهداه الفراعين منذ أربعة آلاف سنة ! فالشمس المعبودة هي الشمس ، والنيل المقدس هو النيل ، والقمح الذي خزنه يوسف (ع) هو القمح ، وجوارح الطير التي تحوم فوق ساحلي النهر هي بأنواعها واشكالها وألوانها التي كانت تحلق في أجواء (طية) ، لان الحيوان والنبات قلما يتالهما التعبير •

(١) الكلة هي الناموسية التي تضرب فوق قوائم السرير لتقي النائم لدغ البعوض وغيره
(٢) الشمس •

واذا كان البحر يتعاوره الجزر والمد ، والشمس يتعاقبها الغروب
والشروق ، والطبيعة يتناوبها الخريف والربيع ، فان مصر الناهضة تشارف
بشروتها المد ، وتطالع بقادتها الشروق ، وتستقبل بشبابها الربيع !

ضحت الشمس واستطاع النظر القصير أن يجمع الوادي في نظرة !
وهيئات لابن (الدلتا) الفسيحة ان يفهم معنى الوادي الا في أعالي الصعيد ،
فهناك تتقارب السلسلتان بما وراءهما من موات وجذب ، وينساب بينهما
النهر العظيم بما يحمل من حياة وخصب ، ويشعر المصري المسافر الذي
يرى هذا المنظر أول مرة فيجد واديه كله في عينه وفي قلبه بنوع من الغبطة
لم يحسه من قبل ، ويستغرق في نشوة من الذكريات والاماني لا يخرج
منها الا وقوف القطار على محطة الاقصر .



وقف القطار ضحى على محطة الاقصر . وأخذ الحجيج المدني يخطو
على رصيفها ذابل الاجفان خائر الابدان من تكسير السهاد أو تفتير الوسن .
وذهب بنا أولياء القطار الى موائد الافطار فأصاب منها من شاء على قدر
شهوته ، ثم قسمونا قسمين : قسما يزور (طيبة الاحياء) في الشرق ،
وقسما يزور (طيبة الاموات) في الغرب . وهل بقي لعمرى في طيبة اليوم
أحياء أو أموات ؟ لقد ذهب الموت منذ بعيد بأحيائها الى القبر ، وذهبت
الحياة منذ قريب بأمواتها الى المتحف ، فلم يبق منها على عدوتي الوادي
غير أتقاض طفت على وجه القرون ، وأبعاد بينها وبين الفناء صراع لا يفتر !
الاقصر مدينة رقيقة الحال تقوم على اطلال طيبة كما تقوم أعشاش
الطيور على شم الصخور .

وبين الاقصر والكرنك مدى من الزمان والمكان يتسع فيه الخيال
ويسبح في أعماقه خاطر . ومن الذي يستطيع ان يجول في مسارح
الجبارين دون أن يتمثل هذا الفصل الذي افتتح به الازل رواية العالم ؟
فهنا منذ بضعة آلاف سنة نبتت في ظلال هذه الجبال انسانية باكرة

ترسل النظر الثقيل البطيء في هدوء واستقامة وبعد ، ويصور لها عقلها
الطفل ألوان التعاجيب والتهاويل من قوى الطبيعة الخفية ، فتنتحت الجبال
قبورا ، وتبتني الصخور قصورا ، وتقيم لالهتها الغلاظ من صم الجلاميد
تماثيل ومحاريب يتضاءل أمامها الفن الحديث .

وهنا منذ أربعة آلاف سنة كان الفكر الانساني يقطع مرحلته الاولى
بينما كان الرقاد الازلي يغشي سائر الارض ، ويطير متاثلا عن جفون
يونان وآشور .

وهنا سجل الزمن الواعي على ملس الغرائث أولى صحائف الفكر ،
فألهمت اليهود والأغريق ما ألهمت في الدين والفن والجمال في شتى ضروبه
وصوره .

وهنا كانت لبني الانسان بداية حسنة لولا طغيان الفرد المتحكم
وسلطان الدين المتعسف قد جعلاً لهذه البداية نهاية من الجور والارهاق
محزنة ، فما نحن أولاء بين صفين من الكباش المسيخة الجاثية أمام معبد
أمون . ومعبد أمون يتلو عليك وحده ان شئت نبأ القوم ! فهو أكداس
هائلة من ضخام الصخر تنافس في ثقلها وركمها الجابرة في خمسة عشر
قرناً منذ سיתי الاول ! منها ابواب وحجر ، ومنها محاريب وتماثيل ، ومنها
مسلات وعمد . ومن أولئك كله ما هو قائم يتحدى بطوله السماء ، وما هو
نائم يفدح بثقله الأرض .

أنظر الى هذه الغابة الكثيفة المخيفة من الاعمدة ! أتظن الشمس منذ
اوقدها الله أشرقت على مثلها في الضخامة والبساطة ؟ ألا يذكرك هذا
العمود الذي تتفتح فوق هامته زهرة اللوتس العجيبة على علو خمسة
وعشرين متراً ، يصرح (تيتان) الخرافي واخوته (١) .

(١) تزعم الاساطير ان تيتان واخوته هم الطبقة الاولى من نسل الالهة
نسلوا من ابوين هما السماء والأرض ، ثم تمردوا على الالهة فجعلوا الجبال
طبقات بعضها فوق بعض ليعرجوا عليها الى السماء فصعقهم زحل وذلك
أشبه بصرح نمرود .

من الذي قطع هذه الاطواد ، ووضع هذه الاوتاد وشاد هذه الاروقة ،
ونحت من الصوان هذه الالهة البكم ، وخلد الملوك على هذه الحجارة
الصم ؟ هو شعب النيل الذليل البائس ! بناها وبنا سواها على قفار الخبز
والهوب السوط ونزع الروح . ولا تستطيع ان تصدق وأنت ترى هذه
المعجزات ان مصر كانت في مدى ثلاثين قرنا تعمل عملا آخر غير ذلك !

استعبدت فكرة الخلود عقول الفراعنة فاستعبدوا في سبيلها جسوم
الشعب . وملكهم حب الآخرة فسخرؤا له حب الدنيا ، وفتنهم متاع
السماء فأرصدوا له متاع الارض ، وغالوا في اعزاز النفس واثار الحياة
وتقديس العظمة فأئكروا حرمة العامة ، وجحدوا قدرة الموت ، وجهلوا
معنى الضعة ، وخلفوا الاجيال الابد من أعقابهم من يطمح كالملوك ويطمح
كالكهنة ويخضع كالسوقة ..

كان (ترجماننا) الامي (ضاوي) يشرح للاستاذة الجامعين والثانويين
حديث تحتمس الثالث مع أخته العاشقة ، ووجوه التماثيل الواجمة غرقى
في صمتها الناطق ، تتراكم على قسماتها أنظار الخليفة ، وتجشم على شفاهها
أسرار القرون ، ورؤوس الاعمدة القائمة ناتئة في أشعة الشمس كالنزولة
الهائلة ، ترسم بظلالها الوريقة تعاقب الساعات منذ آلاف السنين ! وكانت
عيناي الحاملتان قد وقفتا على تماثل من تماثيل رمسيس الأكبر يخطو الى
الامام خطى المصمم الواثق ، وباحدى يديه مفتاح الحياة يجتاز به موت
الساعة الى خلود الابد .

والخلود حلم الفراعنة الدائم وهو همهم الملح . أخطره ببالهم قبل
الناس ما متعوا به من فيض الحيوية وخفض العيش ، ونفوذ السلطان
واكتمال اللذة . فلو أنهم عاشوا على جذب من الاقليم وحرب مع الطبيعة
وهوان على الدهر ، لاستشرفت نفوسهم للبلوى ، واستهلكت عقولهم للعدم .
صعد بنا الدليل باب المعبد في سلم جانبي حديث يقوم عن شماله .
ولو قلت لك البرج بدل الباب لقربت اليك وصفه ! فهو سطح عريض من
ضخام الجلاميد تكدس بعضها فوق بعض كما ترى في الهرم ، أشرف من

شرقيه على ما بقي من صخور السقف فوق الاساطين عروما تراءى من
النصب خلال الاواوين ، وما طعن في السماء من أسنة المسلات • واشرف
من غريبه على طريق بين صفين متوازيين من الكباش الرابضة في حجم
البقر ، يسايره النظر والفكر الى مرفأ كان ولا شك ينتهي عنده قبل أن
يأخذ النهر من الساحل الغربي ألف متر ، ويدع للساحل الشرقي مثلها الف
متر •

في هذا الطريق كانت تخرج الجنائز الملكية من المعبد الى نهر الحياة
فتعبه الى مراقدها الصخرية الابدية في جوف الجبل ، وفي هذا الطريق
كان يسير موكب أمون السنوي الى النهر ، أمامه زمر المهرجين والمشعوزين
يدورون على الارجل ويمشون على الايدي ، بين أخلاط من باعة الفاكهة
وشواة الاوز والبط • ثم يلي هؤلاء فرق الموسيقى تصدح بالاهازيج ،
وطبقات الكهنوت تعج بالاناشيد ، وحاملو الاصنام والبنود يسرون بها
وثيدا في خشوع ورهبة • حتى اذا بلغوا المرفأ تقدموا بأمون فجعلوه في
فلكه الذهبي ، وبالالهة الاخر فوضعوا كل اله وكل الهة في زورق خاص •
ثم يسير الفلك بالاله الاكبر متنزها على النهر ، تتهادى من ورائه زوارق
الالهة على الماء ، وتهل من حوله جموع الناس على الشاطئ ؟



من العسير على النفس الشاعرة ان تعيش في حاضرها بين هذه الاخيلة
والصور ؟ فحيثما أرسلت طرفك أو نقلت خطاك وجدت حجرا يكلمك أو
أثرا يلهمك ؟ التمثال الذي تراه امامك ، أتدري كم مرة طلعت عليه الشمس ،
وكم نظرة نظرت اليه الناس ، وكم وقفة وقفها عليه أقوام من قبلك بعضها
للتقديس وبعضها للعبرة ؟

انك لمستغرق في هذا الماضي الحاضر في قيض من التأمل العميق
الهاديء يقطعك عن الدليل الذي كان يخطب ، والحشد الذي كان يسمع ،
والعربة التي كانت تنتظر ... (١) ؟

(١) تلك كانت حالي. حين ذهب القوم وبقيت .

خرجت فيمن تخلف في المعبد من الاصدقاء الشعراء ، وأخذنا نسير
انهوبنى في الطريق المرملة حتى أدركتنا في بعضه عربة. أفلتنا الى الفندق •
وفي الاصيل المونق من هذا النهار المشرق خرجنا نشهد وداع الشمس
الغاربة لاطلال معبد الاقصر •

ومعبد الاقصر كذلك أجمة من العمدان الباسقة المتشاجنة تنأت على
سيف (١) النهر في طول ثلثمائة متر بمشيئة آل أمينوفيس ورمسيس الاكبر؟
وأول ما يملك عليك عقلك وقلبك فيه منظر يجمع تاريخ الوادي
ويختصر اطوار العقيدة : ذلك منظر المسلة في المعبد ، والبرج في الكنيسة
والمأذنة في المسجد ؟

تجاورت هذه الثلاثة في المكان منذ قرون تجاور الخصوم اللد لا
يستقر بينها سلام ولا تقطع حروبها هدنة ؟

ومن الغريب المعجز أن تثبت هذه الاوثان لهجمات المسيحية والاسلام،
نباتها العجيب لعاديات الليالي والايام •

لا تجد في معبد الاقصر ما تجد في معبد الكرنك من ذلك الاستغراق
الذهني الذي يمحو الوجود من ناظرك، ويعفو الحاضر من خاطرك، ويحييك
مع امينوفيس ورمسيس في دهر واحد ! فان هذا المعبد يقع في جبهة المدينة
ونزهة الناس فلا تنفك وأنت فيه بين نظرة خادعة من مقائن النهر ، وزفرة
صاعدة من البواخر (كوك) ، ولغطة صاخبة من لفظ المارة • ولن تستطيع
وعيناك تضطربان بين الهيكل والكنيسة والمسجد وقصر السلطان وفندق
(وتربالاس) أن تحصر ذهنك في موضع ، ولا أن تقصر فكرك على
موضوع • فكل صورة من هذه الصور والموائل يمثل فكرة ويسجل نهضة
ويؤرخ حقبة • أما معبد الكرنك فقد ظل بنجوة من تيار الزمن الجارف
ينعم بسكونه الشعري في اعتزاله ، ويتمتع في جوه الفرعوني باستقلاله •



(١) سيف النهر : ساحله .

فتتنا سحر الاصيل عن شعر المعبد ، فذهبنا في طريق السلطان حسين
نشهد أروع مجالي الجمال في الطبيعة . ومن حدثك أن بلدا من بلاد الله
غير مصر يتمتع في كانون بدفء يستجيش العرق والبحر ، وضوء يغمر
القلب والنظر ، وصحو يدوم النهار والليل ، فهو لا ريب لم ير الاقصر !
وأى منظر تألقت به قدرة الله وتأنقت فيه يد الطبيعة كمنظر الغروب في
طيبة ؟ فالشمس المصرية تغرب في جلال وراء الجبل واشعتها الفاترة قد
تجمعت حولها من سهول الوادي فلم يبق منها الا غرر تلمع في اجنحة الطير
وسعف النخل ورؤوس الهضاب ، والا شفقتها الوهاج قد شب في أطراف
السلسلة اللوية حريقا بارد اللهب ايذانا بالمغيب ، والمستون من سراق أوروبا
وأريكا يطالعون في شرفات الفندق أجمل ما خطته يد الباريء المصور في
صفحة الوجود ، وأنا وأصدقائي الثلاثة نسير ألهوينى على الشاطيء
الضاحك ، يشيع في دماننا مجد هذا الماضي ، وفي أعصابنا عظمة هذا
الوادي ، وفي اخلاقنا صراحة هذا الجو ، وفي مشاعرنا جمال هذه الطبيعة :
فنكاد من فرط الزهو نقول لمن نلقن من السائحين الغريبن نحن خلاصة
هذا المجد ، وصنيعة هذه الشمس ، وصورة هذا الجمال ، فهلا ترونا
أخلص الناس جوهرها وأصدقهم مظهرها وأزكاهم أرومة ؟

وكان صباح يوم العيد موعد (المقابلة الملكية) ^(١) فعبرنا النهر ووقفنا
بالضفة الاخرى تتحسس الآثار الهوالك ، فلم نجد اماننا غير الحقول
الزمردية تكسو السهل ، والجبال الوردية تسد الافق ، وكانت هذه الضفة
الخلاء في دهرها الغابر حيا من أحياء طيبة يسكنه مخنطو الجثث وصناع
المومياء ، فما كن يومئذ يموت انسان او ينفق حيوان الا أتوا به هذا الحي
فيمضي فيه أهله (عملية) الخلود !

انطلقت بنا السيارات بين الزروع الخضر أرتالا يسفي بعضها الغبار
في وجوه بعض ، فمررنا بالقرية وقد خرج أهلها في زيتهم يعيدون فوق

(١) المراد بها زيارة قبر الملك المصري الشاب توت عنخ آمون في وادي

المقبرة • وأكبر الظن أنهم بقايا ذلك الحي البائد ، فهم يسكنون الجحور
كبنات آوى وينشون القبور كلكوص الموتى، وينحتون التماثيل كصانعي
الالهة ، ويخدعون بالتماثل كدهاة الكهنة (١)

وقفت بنا الحقول فجأة ، ثم أسلمتنا الى قعر من الارض بعضه مرمل
وبعضه مترب ، فسرنا فيه بين أعلام من الحجارة المنضودة ، حتى دفعنا الى
شعب في الجبل تكثر على جانبيه الغيران الموحشة والفجوات العميقة •
فتحسبها باديء ذي بدء من أثر الوحوش النافرة ، ولكنك تدرك بعد هنيهة
أنها من أثر الانسان الذي نكبت به هذه الارض منذ اربعة آلاف سنة فلم
يرفع معوله عنها الى اليوم ؟ شقها فدفن بها الملوك ، ثم شقها فسلم فيها
الملوك ، ثم هو يشقها اليوم دائبا ليخرج منها الملوك ؟

أخذت طرءة النسيم تتخلف عنا رويدا حتى انقطعت • وهب يناوحنا
من فجاج الوادي الملكي جو ثقيل كجو أيار ، واصبحت سلسلة الجبال
فوقنا بعد ان كانت أمامنا ، ثم انعطف الطريق الصاعد بغتة فاذا السيارة
أمام باب من الخشب ، وابواب من الناس ، وقائل يقول : هنا جبل الخلود
وحرم الملوك ومشوي توت عنخ أمون ؟

الجبل من أعلاه الى أسفله قطعة واحدة من الحجر الجيري الصلد لا
تجد فيه صدعا ولا فرجة ؟ نقرت يد الانسان القديم في أصله فتحة مربعة
دخل منها الدليل ودخلنا على أثره ، فاذا سلم حادر يهبط بك قليلا أو كثيرا
الى بئر عميقة تضلل لللكوص • ثم يعود فيهبط الى قاعة فسيخة تجمع
أشتات المتاع • ثم يعود فيهبط الى حجرة تضم جثمان الملك ! وسقوف
الحجر محلاة بصور من جماعات الكواكب ، وجدران الانفاق مغشاة بصور
من كتاب الموتى : فالبرزخ الفاصل بين الحياة الفانية والحياة الباقية مصور
كله في وضوح ودقة ! فهنا الميزان ، وهناك الصراط ، وهناك المطهر ،
وفيما بين ذلك عقبات هائلة وحيثات قاتلة لا يفلت منها الا من حمل جواز

(١) ينحتون التماثيل ويوهمون الناس انها قديمة .

الامان وعرف كلمة السر ؟

وقفنا حيال فرعون ، وهو راقد في أكفانه الذهبية رقدة الضراعة والهون ؟ يشمت به الفناء ، ويسخر منه البقاء ، ويصيح في أذنيه القدر :

لقد علوت يا فرعون في الارض ، وغلوت في الجبروت ، وسخرت الزمان لتخليدك ، والانسان لتمجيدك ، ثم كانت عاقبتك يا فرعون هذه العاقبة المضحكة ؟ فصاحب أذنك خادم حقير ، وكبير أمنائك (ترجمان) أجير ، وشعبك العاثر يحضر (التشريفة الكبرى) يوم العيد في حلة غير رسمية ولا هيئة جدية ، وجلالتك الالهية كلها لم تقو الا على الدود ، ولم تحفظ الا ببسمة ساخرة من ثغر الخلود ؟

أعياد الحياة والحريّة

شم النسيم في مصر عيد اكتمال الربيع ، يخرج الناس من دورهم فيه الى الطبيعة السافرة المجلوة في العراء الكاسي بأفنان الزهر ، وفي الهواء الناسم بأنفاس الرياحين ، يشهدون افتضاح سر الحياة في الارض ، وانفتاح باب الجنة على الروض ، وانتشار جمال الله في الكون ، واقترار الدهر العابس عن بسمات البشر تفيض في العيون والصدور ، وتشرق على الحقول والدور ، وتهيء القرب بين الله والانسان والطبيعة .

لشد ما تفعل بالنفوس مشاهد الحياة وذكرى الحرية !

في هذا اليوم يحتفل المصريون في (شم النسيم) بعودة الروح الى الدنيا ، وهبة الطبيعة من مرقد الموت . وبالامس كان عيد الفصح المسيحي، احتفل فيه نصاري الشرق كما احتفل في مثله من قبله نصارى الغرب ، برجعة الناسوت وقيامة يسوع . فلهذا الفصل الجميل كيف يعود فيه الخلق ، ويرجع معه الشباب ، وتحيا به الحرية ، ويسبح منه الوجود في فيض من الشعور القدسي يدرك فيه الانسان أنه حي ، ويدرك الحي ، أنه حر ، ويدرك الحر أنه جميل ، ويدرك الجميل أنه صالح ، ويدرك الصالح ، أنه خالق بملكوت الله وخلافة الارض !

تباركت يا مبدع الربيع ومصور الجمال ومعيد الخلق : هذا النيل يتنفس بالحياة مأؤه فما لاتفسنا تموت ؟ وهذا الوادي يتفجر بالخصب ثراه فما لآمالنا تذوي ! وهذا الربيع يرف بالحسن نسيمه فما لاخلقنا تسوء ؟ ألسنا جزءا من الطبيعة تتجدد كما تتجدد ، وتدور على قطب الحياة كما تدور ، ونجري على سنن الكون كما تجري ؟ اذن فلماذا يعود نيسان في كل عام فيرد الى الشجر حلاه ، والى البلب أغاريداه ، والى العش زياطه ، والى الحيوان نشاطه ، والى العالم كله بهاءه ورويقه ، ونلقاه نحن في كل

موعد ابان وروده ، فلا نجد عنده وأسفاه ريشة لجناح ، ولا نفحة لامل ،
ولا جدة لدارس !



هكذا قضى الله ان يكون الربيع مستأنف القوة والفتوة والرجاء لكل
حي ، ومسترجع الذكر الممضة والاطياف الحزينة لابن آدم وحده ! فهذه
الشجرة التي أراها فيناثة الافرع ربا الاماليد ^(١) كانت في عهد من العهود
عشا لطائرين بسط الشباب لهما في الجناح ، وفسح الحب لهما في الجو ،
فيطيران ما شاء الهوى أن يطيرا ، ثم يأويان اليها ويفردان عليها حتى
تقوض العش ونسل الجناح ويبست الحنجرة ! وها هي ذي الشجرة نفسها
قد عراها الخريف عشرين مرة ، وكساها الربيع عشرين مرة ، ولكن ذاوي
الشبيبة لن ينضر وماضي الحبيبة لن يعود !

وهذا المرج أراه موشى البرود منضور الجنبات ، كان في عام
من الاعوام مسرحا لمشهد من مشاهد الصباة ، انتظمت به عقود الحب ،
وانتشرت فيه حبات القلب ، وتبددت عليه خطوات السعادة .

ثم تصوح المرج وعاد فاخضوضر وأزهر ، ولكن مضاجع الهوى لن
تهد ، وذواهب الخطى لن تؤوب !

وهذا الجدول الرقراق الذي أسمع هسيسه فوق الحصى وتحت
الصفصاف ، كان في ربيع من الاربعة مرآة لوجهين حبيبين قرءا سريهما في
صفائه ، ومزجا حديثهما بخير مائه ، ثم جف مجراه وما لبث أن فاض ،
وانقطع حديثه ثم عاد فاستفاض ، ولكن الوجهين لن يعود بينهما لقاء ،
والحديثين لن يكون لانتهاهما ابتداء !

وهكذا يجد الانسان أنه وحده في كل منظر من مناظر الارض ، وفي
كل مظهر من مظاهر الربيع ، أثر بعد عين ، ودوار بعد نشوة ، وبلى بعد
جدة ، وذكرى بعد أمل !

(١) الاماليد : جمع املود وهو الفصن الناعم اللين .

حديقة في بغداد

كان ألد ما اتذوقه من جمال بغداد وقفة في حديقة (النادي العسكري) كل صباح ! فكنت تراني أحرص عليها حرص العابد المتحنت على أداء صلاته ، أو العاشق المتوجد على لقاء فتاته . كنت أغشى كل يوم هذا المجتلي الساحر في رونق الضحى أو في متوع النهار فأجد الشمس قد لأت ذوائب النخل وغوارب النهر ، وأخذت ترشق بأشعتها الظلال الندية من خلال الشجر ، وبنات الهديل ^(١) يحشن كعادتتهن في عساليج ^(٢) التين وأعضاء التوت بأرجلهن ومناقيرهن وهن يرجعن على التناقب ألحان الخريف ، وأرى الحديقة مطلولة النبات منضورة الزهر تتنفس بالفاغية ^(٣) تنفس الطفل الحالم ، وأشعر بالسكون مرهوب الجلال أنيس الوحشة ، يعمق ثم يعمق حتى تكاد تسمع النبات وهو ينبت ، وأجد النادي خلوا من أهله فلا تجد الا بستانيا يعمل في صمت ، وغلاما يكنس في هدوء ، وطفلين جميلين يجيئان أحيانا فيجلسان في الشرفة أو يمشيان في الحديقة . فلولاً نشوز خادمهما الكهل ، ومنظر هندامه الزري الشكل ، لحسبتهما زهرتين من زهورها ، أو عصفورين بين طيورها ، فأسير في الروضة متشد الخطى مرسل النفس مرهف الحس ، تارة بين ماشيها ، وتارة فوق حواشيها ، فأقف عند كل شجرة ، وأحيي كل زهرة ، وأسأل النبتة الوليدة بالأمس ما حظها اليوم من سر الحياة ونعمة الوجود . ثم أصدد درجة الى الشرفة ، وأنهم ساعة بتلك الوقفة ، أتسم هواء النهر ملء رثتي ، وأخذ

(١) بنات الهديل : كناية عن الحمام .

(٢) العساليج جمع عسلوج وهو مالان واخضر من قضبان الشجر اول

ما ينبت .

(٣) الفاغية كل زهر له رائحة طيبة .

جملة المنظر بمجامع عيني وأي منظر يسحر الطرف ويملك اللب كهذا المنظر
الفاتن ؟ الحديقة من ورائي تضوع بالنسيم الاريح وتروق بالروا البهج ،
ونروع بالسكون الملمهم ! ودجلة الخالد من امامي تتجاوب أصداء الامم
خافتة في لجاجه ، وتتهادى خفاف القوارب راقصة بين أمواجه ، وأنا بين
الشجر والماء ، كالطائر بين الارض والسماء ، يسبح خاطري في أجواء الماضي
القريب والبعيد صاعدا الى فكرة ، أو هابطا على ذكره ، أو حائما حول
منظر كهذا المنظر ، تدفق به قلب في قلب ، وامتزجت فيه نفس بنفس ،
وتجمعت الاحلام والاماني كلها فوق رقعة صغيرة من أرضه ، وتحت سرحه
فيثانة من روضه •



لا تظن هذه الحديقة فيحاء قد تأنتت فيها يد الطبيعة وتألق بها فن
الانسان ، انما هي مربع من الارض على قدر ما يتسع له فناء كبير في منزل
فخم ، يشقها ممشيان معروشان قد تعارضا على شكل صليب فقسماهما
انى أربعة أقسام سواء ، وفي هذه الاقسام وما ألحق بها قام دوح السدر ،
وبسق سرح الكافور ، وانتظمت على جوانب مماشيتها أشجار النارج ،
وانتشرت على معظم ارضها ألوان قليلة من النور الجميل والورد العطر ،
فسماؤها كما ترى للشجر ، وأرضها للزهر ، وجوها للعطر ، وهي كلها
لنوع من الجاذبية يجعلها على بساطتها فتنة الفنان وجنة المفكر •

ليت شعري ما مصدر هذا السخر الذي يشع في عيني ويشيع في
نفسي كلما دخلت هذا المكان ؟ أهو داك البناء المتاكل الذي يقوم في جنوبيه
كأنه المعقل البالي أو الدير المهجور ؟ أم هو ذلك النهر الجميل الذي يجري
في غربية كأنه الزمن الدافق أو الكتاب المنشور ؟ ام هو ذلك المزيج العجيب
من جلال القدم في المكان ، وجمال الطبيعة في البستان ، وعظمة الحياة
المماثلة في النهر ؟

ليس للروح العسكري في هذا المكان الشعري مظهر ولا أثر • فما
تعده من الخشونة في الشكنات والعنف في الحركات والقسوة في النظرات

والكلمات يحول هنا الى ذوق فنان ورقة شاعر وهدوء فيلسوف !

كادت هذه الخواطر الجريئة للملحة تذهلني عن حديقتي واليوم عيد من اعياد الطبيعة برزت فيه عارية من الحلل غانية عن الجلى • والخريف في العراق هو الربيع احترقت غلاله الوردية في لظى تموز • فهو على تجرد ارضه من الانوار ، وتحجب سمائه أحيانا بالغيوم وأحيانا بالغبار ، جميل البسمات عليل النسمات رفاف الاديم • فيها نحن اولاء بين أعقاب الخريف وطلائع الشتاء والشمس لا تزال في ثغر السماء ابتسامة حلوة • تضاحك النهر الحبيب فتزيده طلاقة ، وتداعب الزهر الكئيب فتكسبه أناقة ، وتطالع الجو المقرور فتقبسه حرارة ، وتصارع برد الموت في اوراق النارنج وأطراف التوت فتطيل بقاءها فترة أخرى من الزمن ، وهذه اليمامات السواجم ما زلن يأوين الى أعالي الشجر ، ويمرحن في الضوء وينعمن بالدفع بالاهازيج كأنهن في أمنة من حلول كانون وهو منهن على ليال قلائل • وهذا دجاة السعيد يتنفس موجة بالنعيم ، ويطفح غرينه بالذهب ، ويقذف تياره بالغشاء والزبد ، بعدما بخره القيظ فش حتى انكشف ضميره • وانقطع خريره ، وكاد يزحف الشبوط ^(١) والزورق فيه على القاع • فالبوآخر تصعد صافرات في سرعة ، والاطواف ^(٢) تنحدر صامتات في بطء ، والقفف ^(٣) تعبر موقرات في هواده ، وقوارب الصيادين وزوارق الملاحين تتعارض وتتقاذى في عباب النهر كأنها الخواطر الحائرة في الفكر العميق ، والطيور الصائدة تحوم على وجوه الماء بأجنحتها الشهب حومان الامال على ستر الغيب الصفيق ، والبجعة ^(٤) الملكية تطعن في صدور الموج

(١) الشبوط نوع من السمك .

(٢) الاطواف كالارمات اعواد من الخشب توضع فوق قرب منفوخة يحمل عليها في الماء .

(٣) القفة : نوع مستدير الشكل من السفن العراقية الاثرية يرجع تاريخه الى الكلدان .

(٤) هذه البجعة كانت تعيش في قصر الملك فيصل الاول رحمه الله ، وقد كان واقعا على النهر شمالي هذه الحديقة وكانت تقضي اكثر نهارها على الماء .

بمنقارها الطويل العريض وهي تسبح آمنة في حمى البيت العتيق ، وانفاس
دجلة اللاهث من عبء القرون تتصاعد اليّ حاملة أنين الامواج وخفق
المجاديف وغماغم (الكرخ) فتختلط بتجاوب اليمام على الشجر ، وتناوح
الرياح بين الغصون ، وحشجة الاوراق الداوية على الارض ، فتتألف من
هذه الاصوات الخافتة موسيقى روحية شجية تبعث رواقدا الاحلام وتثير
كوامن الالام وتقطع بين النفس ووجودها الحاضر *

ايه يا دجلة ، يا سجل الامم ورواية العصور ! لشد ما فنت في خيريك
ضحكات ، وامتزجت بنميرك دموع ، وخفيت في ضميرك اسرار لقد رأيتك
بالامس ضارعا قد لصق خدك بالارض حتى هم بغوضك الخائض ، وهمدت
حياتك حتى أوشك أن يسكن عرقها النابض ، ثم رأيتك اليوم وقد غاثك
الغيث فجاشت ينابيعك الثرة بالنماء والثراء والقوة ثم أقبلت كدأبك منذ
آلاف السنين مدوّي الدارات صخّاب اللج تعرض هذا النعيم ملحاً على
بنيك فيعرضون عنه اعراض البطر ، ويؤثرون على فيضك الميمون ودق
المطر ، ثم يهينون كبرياءك يا ابا الحضارات فيجعلون مبلغ همك حمل
الارماث ونقل القفف ! فهل يعجبون اذا فار غضبك فجرفت السدود
وجاوزت الحدود وأصبتهم بالغرق ؟!

في الربيع

منذ ايام تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل ، وأخذت تنضح جفنها
الوسنان بأنداء الربيع وتبحث عن حللها وحلاها في خزائن الارض ، وتأهب
كل حي ليحتفل بشابها العائد وجمالها المبعوث . فالحياة الهامدة تنتعش في
الفصون الذابلة ، والطيور النازحة تعود الى الاعشاش المقفرة ، والافنان
السليية تنفطر ^(١) بالاوراق الغضة ، وبارض النبت ^(٢) يحوك على أديم
الثرى أفواف ^(٣) الوشي ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل الى الناس
رسالة الزهور ، وسر الحياة يستعلن الاحياء فتنتشي وتمرح ، وطيوف
الهوى تمس القلوب فتنهفو وتختلج ، والعالم كله يسبح في فيض سماوي
من الجمال والنشوة والغبطة ! ما عدا الانسان !

فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالما بذاته ، فكان نشوزا في
نعم الكون ، ونفورا في نظام العالم . فلو أنه اقتصد في تصنعه واثلف كما
كان بالطبيعة لا تحد الان مع الربيع ، فشر بتدفق الحياة في جسمه
واشراق الصفاء في نفسه ، وانبثاق الحب في قلبه ، وأحسن أنه هو في وقت
واحد زهرة تفوح ، وخضرة تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما
حولها البشر والبهجة !

لا يكاد يقبل على اوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد
البلابل في تمجيده واعلانه ، لان يفد اليهم فيرد عليهم النور والدفء والزهر

(١) الافنان : الفصون . وتقطرت : انشقت من الورق .

(٢) البارض : اول ما تخرج الارض من النبت .

(٣) الافواف جمع فوف ، وهو نوع من برود اليمن كانت تشبه به
الزهور في اختلاف الوانه .

والجمال والحركة •

ولعلك واجد ما يدعم هذه الفكرة عن الجمال في قول (شيشرون)
« ان الطبيعة أبدعت الاشياء على صورة تجعل ما يكون منها جم المنفعة
يكون كذلك جليل المكانة موفور الجمال • ان جلالة هذا المعبد نتيجة
لازمة لمنفعته • فلو انك تخيلت (الكاتبول)^(١) قائما في السماء على هام
السحب ، لما وجدت له جلالة في نفسك ما لم يكن قيامه هناك علة لسقوط
المطر » •

وهل المنفعة التي ارادها شيشرون في صنع الطبيعة وفي نتاج الفن
الا الذكاء الذي أردناه في الجمال وقصدنا به حكمة الغرض وانتظام الخطة؟
أما نحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله، لان العالم كله على ضفاف
الوادي يوم من أيام الربيع •

فليس للربيع المصري على سائر الفصول فضل الا بذلك السر الالهي
الذي تتشقق عنه الارض فيسري في العود ، ويشيع في الجو ، ويدب في
الاجسام ، وينشأ عنه هذا البعث الصغير !

ففي الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة الى التجميل ، فترى
الشباب بجنسية يستعير ألوان الرياض وعبير الخمائل ومرح الطيور ،
ويحتشد في دور الملاهي وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود وضاعة
الحسن ، وعلى الحياة رونق السعادة !

وأجمل شيء في ربيع القاهرة أصائله وأماسيه !

ففي هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى
الالوان من بنات الانسان ، فتملا الجو عطرا والعيون سحرا والقلوب فتنة!
وهناك على أفاريز الطرق ومشارف القنوات ، تقف أبصار الكهول

(١) الكاتبول : معبد وقلة اقيما على هضبة من هضاب روما السبع ،

والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغبة هذا الحسن المصون وبين
النظرة والنظرة عبدة جافة تصعد أبهى على شباب ذاهب لا يرجع ، وجمال
رائع لا ينال !

وفي الربيع تتقد حمية العروبة في العرب فتسمع اليوم في فلسطين
والشام أبناء الشعب الخالد ، ووراث المجد التالد ، يصرخون صراخ الاسد
في راقدة العدل أن يستيقظ وفي غائب الحق أن يثوب !

يا قارئى أنت صديقي فدعني أرق على يدك هذه العبرات الباقية !
هذا ولدي كما ترى ، رزقته على حال عابسة كاليأس ، وكهولة يائسة كالهرم
وحياة باردة كالموت ، فأشرق في نفسي اشراق الامل ، وأورق في عودي
ايراق الربيع ، وولد في حياتي العقيمة معاني الجدة والاستمرار والخلود !
كنت في طريق الحياة كالشارد الهيمان ، أنشد الراحة ولا أجد الظل ،
وافيض المحبة ولا أجد الحبيب ، وألبس الناس ولا أجد الانس وأكسب
المال ولا أجد السعادة ، وأعالج العيش ولا ادرك الغاية . كنت كالصوت
الاصم لا يرجعه صدى ، وكالروح الحائر لا يقره هدى ، وكالمعنى المبهم لا
يحدده خاطر . كنت كالآلة تتجتها آلة واستهلكها عمل فهي تخدم غيرها
بالتسخير ، وتميت نفسها بالدهوب ، ولا تحفظ نوعها بالولادة . فكان
يصلني بالماضي أبي ، ويمسكني بالحاضر أجلى ، ثم لا يربطني بالمستقبل
رابط من أمل أو ولد . فلما جاء (رجاء) وجدته أولد فيه من جديد . فأنا
انظر الى الدنيا بعين الخيال ، وأبسم الى الوجود بشعر الاطفال ، وأضطرب
في الحياة اضطراب الحي الكامل ، يدفعه من ورائه طمع ، ويجذبه من أمامه
طموح ! شعرت بالدم الحار يتدفق نشيطا في جسمي ، وبالامل القوى
ينبعث جديدا في نفسي ، وبالمرح الفتى يضج لاهيا في حياتي ، وبالعيش
الكثيب تتراقص على حواشيه الخضر عرائس المنى ! فأنا ألعب مع رجاء
بلعبه ، واتحدث الى رجاء بلغته ، وأتبع عقلي هوى رجاء فأدخل معه في
كل ملهى دخول البراءة ، وأطير به في كل روض طيران الفراشة . ثم لم يعد
العمل الذي أعمله جديرا بعزمي ، ولا الجهد الذي أبذله كفاء لغايتي ،
فضاغت السعي ، وتجاهلت النصب ، وتناسيت المرض ، وطلبت النجاح في
كل وجه ! ذلك لان الصبي الذكي الجميل أطال حياتي بحياته ، ووسع

وجودي بوجوده فكان عمري يغوص في طوايا العدم قليلا قليلا ليمد عمره
بالبقاء ، كما يغوص أصل الشجرة في الارض ليمد فروعها بالغذاء •

شغل رجاء فراغي كله ، وملا وجودي كله ، حتى أصبح هو شغلي
ووجودي ! فهو صغيرا أنا، وأنا كبيرا هو • يأكل فأشبع، ويشرب فأرتوى،
وينام فأستريح ، ويحلم فتسبح روحي وروحه في اشراق سماوي من
الغبطة لا يوصف ولا يحد •

ما هذا الضياء الذي يشع في نظراتي ؟ ما هذا الرجاء الذي يشيع في
بسماتي؟ ما هذا الرضا الذي يغمر نفسي؟ ما هذا النعيم الذي يملأ شعوري؟
ذلك كله انعكاس حياة على حياة ، وتدفق روح في روح ، وتأثير ولد في
والد ؟

ثم انقضت تلك السنون الاربعة ، فصوحت الواحة وأوحش القفر ،
وانطفأت الومضة وأغطش الليل ، وتبدد الحلم وتجهم الواقع ، وأخفق
الطب ومات الرجاء !

يا جبار السموات والارض رحماك ! أفي مثل خفقة انوسنان تبدل
الدنيا غير الدنيا فيعود النعيم شقاء والملاء خلاء والامل ذكرى ؟ أفي مثل
تحية العجلان يصمت الروض الغرد ، ويسكن البيت اللاعب، ويقبح الوجود
الجميل ؟

حنانيك يا لطيف ! ما هذا اللهب الغريب الذي يهب على غشاء الصدر
ومراق البطن فيرمض الحشا ويذيب لفائف القلب ؟ اللهم هذا القضاء فأين
اللف ؟ وهذا البلاء فأين الصبر ؟ وهذا العدل فأين الرحمة ؟

ان قلبي ينزف من عيني عبرات بعضها صامت وبعضها معول ! فهل
ليبان الدمع ترجمان ، ولعويل الثاقل ألحان ؟ ان اللغة كون محدود فهل
ترجم اللانهاية ! وان الالة عصب مكدود فهل تعرف الضرم الواري ؟ ان
من يعرف حالي قبل رجاء وحالي معه يعرف بعده ! اشهد لقد جزعت عليه
جزعا لم يغن فيه عزاء ولا عظة ! كنت انفر ممن يعزيني عنه لانه يهينه ،

وأسكن الى من يياكيني عليه لانه يكبره ، وأستريح الى النادبات يندبن
القلب الذي مات والامل الذي فات والملك الذي رفع ؟

لم يكن رجاء طفلا عاديا حتى أملك الصبر عنه وأطيع السلوان فيه .
انما كان صورة الخيال الشاعر ورغبة القلب المشوق ! كأن وهو في سنه
التي تراها في صورته يعرف أوضاع الادب ، ويدرك اسرار الجمال ، ويفهم
شؤون الاسرة ، ويؤلف لي الاقاصيص كلما ضمني وإياه مجلس السمر !
كان يجعل نفسه دائما بطل الرواية فهو يصرخ الاسود التي هاجمت الناس
من حديقة الحيوانات ، ويدفع (العساكر) عن التلاميذ في أيام المظاهرات ،
ويجمع مساكين الحي في فناء الدار ليوزع عليهم ما صاده بيندقيته الصغيرة
من مختلف الطير !

والهف نفسي عليه يوم تسلل اليه الحمام الراصد في وعكة قال الطبيب
الغفلان انها (البرد) ، وقال القدر اليقظان بعد ثلاثة أيام انها (الدفتريا) !
لقد عبث الداء الوبيل بجسمه النضر كما تعبث الريح السموم بالزهرة
الغضة ! ولكن ذكاه وجماله ولطفه لم تبرح قوية ناصعة ، تصارع العدم
بحيوية الطفولة ، وتحاج القدر في حكمة الحياة والموت !

والهف نفسي عليه ساعة أخذته غصة الموت ، وأدركته شهقة الروح ،
فصاح بملء فمه الجميل : (بابا ! بابا) كأننا ظن أباه يدفع عنه ما لا يدفع
عن نفسه !

لنا الله من قبلك ومن بعدك يا رجاء ، وللذين تطوعوا بالمواساة فيك
السلامة والبقاء .

ليالي الحصاد

كان ذلك في احدى الليالي بين اواخر مايس وأوائل حزيران ، والزرع قد استحصد وتهالك بعضه على بعض في الذبول واليبس فلم يعد يقوى على حمل سنبله •

وكان الحاصدون والحاصدات قد خرجوا عشاء الى الحقول الذهبية، في أيديهم المناجل ، وعلى أكتافهم الاردية ، وهم يوقعون على طرق الربيع العشبية أهازيج الجذل والامل ، فباتت القرية هامدة كأنما ضرب على آذانها الموت فلا تسمع سامرا على مصطبة ولا نابجا على تل • فأخذني منها ما يأخذ السائر الواحد من الغابة اللفة أو المقبرة الفسيحة • فخرجت أنشد الفرجة والانس في حقل من حقولنا القرية • وكنت أعلم أن في حصاده جوقة من الاوانس الحسان الوجه والصوت • فلما غمرني ليل الحقول ، وملكني سلطان الطبيعة ، أحسست في نفسي دنيا جديدة لم أحسها من قبل لا في نهار الناس ولا في ليل القرية ! فقد كان القمر حينئذ في الفخت (١) يرسل أضواءه اللينة الرخية هادئة كاشعاع الحلم ، شاحبة كاسفار الامل ، فيلون الغيطان والغدران والطرق بلون الفضة الكاكية ، ونسيم آذار الندي العبهري ينفخ بطراءة الفردوس الانسان والحيوان والشجر، فينتعش الهامد ويتنفس المكروب وتتندى الحصاد ، فتسمع الجنادب تصر في هشيم البرسيم ، والضفادع تنق على حفا في الترع ، والسواقي تنوح على رؤوس الزروع ، والحاصدات يغنين في مزارع القمح ، وطيور المساء تبغم في أعالي الدوح ، وكلاب الحراسة تنبح على أطراف الاجران ، فيكون من كل أولئك أيقاع موسيقي عجيب يبعث الروعة في النفس ويلقي الشعر على خاطر !

(١) الفخت : ضوء القمر أول ما يبدو •

على أن هذه الاصوات المتجاوبة على نشوزها لم تكن هي مبعث
السحر الذي غلب على مشاعري ، وانما كان مبعثه ذلك السجو العميق
السحيق الذي ضرب على حياة الليل فهيمن على كل حس ، وسيطر على كل
حركة ، فما نسمع الاصداء في جوف هذا الكون الا كما نرى الانداء في
رمال المفازة •

كنت أمشي بين هذه الظواهر الليلية وئيد الخطو رزين الخيال مرهف
الحساسة ، لا أجد في طبعي ما كنت أجد في النهار من مرح الصبا وخفة
الحدأة ، فكأنما يضع الليل من ثقله على الجسد والفكر والشعور فيتغلب
على المرء الهدوء والبطء • ذلك الى أن الجو الاجتماعي في القرى ليالي
الحصاد يختلف عنه فيها أيام الجني • ففي حصاد القمح يأخذ القرويين حال
من التدين الذاكر الشاكر لانهم يتقبلون فضل الله في الحبة المقدسة ليحفظوا
بها البدن ويمسكوا عليها الروح ، فهي عندهم مرادفة للحياة ، يسمون
خبزها (العيش) و (النعمة) • ويتحررون في كسبها الحلل والحرمة ،
ويذكرونها فيذكرون الرزق والصدقة والزكاة والبركة •

أما في جني القطن فيدركهم مس من الطمع والغرور فيحبون الدنيا
ويعشقون المال ويرغبون اللهو ، ويذكرونه فيذكرون الربا والثراء والرواج
والزواج والهم •

كنت لدى ساقية الغيط الراقدة في كلة ^(١) من أغصان الصفصاف
المرسلة حين ارتفع صوت أمينة الحنون بالاغنية الشجية التي تمتع الاذن
والنفس • وكان الحصد من رجال ونساء يزحفون الى القمح بمناجلهم
صفا فيتركونه وراءهم أضغاثا من الحصيد منظومة الاسافل والسنابل ،
ثم يعودون الحين بعد الحين فيركمونها حزما غليظة ويدعونها تنتظر النقل
على الجمال الى الجرن •

وأجمل ما في ليالي الحصاد منظر الحقول المنبسطة على مدى الطرف

(١) الكلة ناموسية السرير •

وقد ضربت في صفرتها أضواء القمر فايضت ايضاض المصريات الحسان ،
ومجالس الشباب والشواب على حصائد القمح الوثيرة يديرون سقاط
الحديث الفكه ويتبادلون في احتشام كنايات الغزل الحبيي ، وغناء الفتيان
وزمر الفتية يتواردان على سمعك من قريب ومن بعيد ، فيفعلان في نفسك
ما لا يفعله الموسيقار الحاذق ، ثم نوم هؤلاء وهؤلاء في الهزيع الاخير على
فرش من الحصيد تكلأهم عين العفاف ؛ وتتمثل احلامهم صور الفضيلة •
فاذا ما تنفس الصبح على وجوههم المظلولة هبوا الى القناة يتوضأون
ويصلون ثم يعودون الى مناجلهم على أنشط ما يكون الفتى وأرضى ما
يكون المؤمن •

أبدا لا أنسى أنني قضيت معهم تلك الليلة ، ثم نمت هذه النومة ،
وقمت هذه القومة ، وأسفر على ذلك الصباح الضاحك المنصور فأبصرت
مسالك القرية تسيل بحاملات الفطور الى الحصاد ، وسائقات الماشية الى
المرعى ، ولاقطات السنبل من بنات الفقر ، فكان لي من جمال تلك العشية
وضحاها ، لذة لا أزال انعم بذكرها وأتمناها !

من مآسي الحرب

عرف صديقنا الشيخ منصور بمواقفه الجريئة من اصحاب الضياع والالقاب ، أيام الانتخاب لمجلس النواب ، فقد كان في جرأة قلبه وعزة نفسه مثل الفلاح المؤمن بعظمة الله وكرامة الانسان وحقارة الدنيا . وكان كما علمت من وصفي اياه قد تعاظمت في نفسه الحرية حتى احتقر المالك ، وألحت على جسمه السلامة حتى سئم العافية ، ونفرت عن قلبه الهموم حتى ألف السعادة .

هذا الرجل الذي كان شخصه يتميز في الزحام من بعد ، قد استسرت علي معرفته وهو أمامي ! لقد ذوى ذلك المحيا النضر ، وتهدم ذلك الجسد الوثيق ، وتحدد ذلك العضل المكتنز ، وتجرد ذلك الهيكل الريان ، حتى ليخفق جلبابه على ألواح !

لقد انقطع علم ما بيني وبينه منذ دهر طويل ، وكان آخر العهد به لقاء ضاحك في بعض قرى الريف وهو على حاله تلك من الوثاقة والطلاقة والصحة ، فلما علم أنني قدمت المنصورة في هذا الاسبوع جاء يزورني متحاملا على نفسه . فلما أقبل عليّ انكرته أول ما رأيته ، ثم لم ألبث أن عرفته بما بقي من سيماء على وجهه . فصافحته وأحسننت لقاءه ، ثم دعوته الى الجلوس فسقط بجانبى على الكرسي كما يسقط كيس من العظام على الارض ، وعقل الدهش لساني فلم أسأله عن أمره . وحدث هو ما يعتلج في نفسي من الخواطر فقال بصوت غير صوته ، ولهجة غير لهجته أ

— لعلك ظننتني خارجا من المستشفى ، أو بالحري مبعوثا من القبر ! ليت ما بي كان المرض ، فقد يكون للمرض دواء ! وليت ما بي كان الموت ، فقد ينحسم بالموت الداء ! انما هو جسم يذوب في نار من الهم لا تخبو ،

وروح تزهق في حشجة من الكرب لا تنقطع !

— اذن أنت يا صديقي حزين ؟

— اذا كان لفظ الحزن يعبر عن هذا الذوبان الدائم وذلك الاختصار المتصل فأنا حزين

— هل فقدت عزيزا عليك ؟

— لقد فقدت كل عزيز عليّ !

وهنا خانه الجلد فلم يستطع المسكين أن يملك دمه • فلما هدأت نفسه وراجع صبره قال :

— أنا في حياتي ما شكوت ولا رجوت ، ولكن الخطوب التي قوضت ركني وسودت حياتي هي التي أكرهتها على أن أشكو وأرجو وذلك وحده خطب الخطوب •

كان ذلك في شتاء سنة ١٩٤٢ ، وكان لي عامئذ زوجة مخلصة وابنة عزيزة وثلاثة شباب بررة ، وكنا نحن الستة ، ومعنا بقرتنا العاملة الحلوب وحمارنا الفاره الدعوب ، وكلبنا الحارس الامين ، لا نفرق ولا نختلف ، ولا نرى الدنيا الا في بيتنا وحقلنا ، ولا نجد اللذة الا في لباسنا وأكلنا • فاذا جار المالك علينا في القسمة ، عدل الله فينا بالمعوض • وان جرى القضاء علينا بما نكره انتهى الصبر بنا الى ما نحب • حتى أزمت هذه الحرب الناس ، فضاقت الرزق ، وامتنع الوارد ، وارتفعت البركة ، وفشا المرض ، وأعوز الداء واختزن الملاك ما تنبت الارض ، واحتكر النجار ما تجلب السوق ، ففحش الغلاء ، وطفف الكيل ، حتى أصبح الاجير يعمل الاسبوع كله ليشتري كيلة من الذرة اذا وجدها ، ثم قضت سياسة التموين ان تشتري الحكومة مقدارا من القمح مفروضا على كل زارع • وقضى الله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر الا تزيد علة أرضي على حصة الحكومة عندي ؛ فنقلت على حباري ما في الجرن الى بنك التسليف ، وحجز المالك

ثمن القمح استيفاء لبعض ايجاره ، فخرجت صفر اليدين من النقد والحب،
فلا في الجيب ولا في المخزن . ولكننا يا سيدي أحياء ، والحي لا مناص له
أن يأكل . فقممت أنا وزوجتي وابنتي على زراعة الارض ورعي البقرة ،
واشتغل بني الثلاثة أجراء عند الناس ، فكننا نجعل أجرهم في كل ثلاثة ايام
لنشترى بها كيلة واحدة . وماذا تصنع الكيلة من غير ادام في ثلاثة ايام
لسته أفواه ؟

على أن هذه الحال لم تدم ، وليتها دامت ؟ فقد نفدت الجيوب من
القرية ، وحرّم على الناس نقلها من بلد الى بلد ، فكنت أقبض اجرة اولادي
في المساء ، ثم اذهب الى المنصورة في الصباح ، فأشترى بها من الخبز
المخلوط ما لا يسمن ولا يشبع . وعلى هذا النمط النابي من سوء العيش
قل الغذاء ، وكثر العمل ، وبلي الثوب ، واتسخ الجسد ، واعتلت الصحة ،
ووفدت على القرية حمى التيفوس فلم تجد مناعة في جسم ، ولا وقاية من
نظافة ، فأودت ببني الاربعة واحدا بعد واحد . ونجت منها زوجتي لتندبهم
في الثواكل حتى لا يترك اولادي الحياة من غير عرس ولا مأتم . ثم أمعن
القدر في ابتلائه : فانتشر في الماشية وباء التسمم الدموي ، فنفتت البقرة ،
وهلك الحمار ، وأصبحت الدار والحمد لله خلاء مما صأى وصمت ! أما
بفية القصة فانك تقرأها الان في وجهي . واذا جاز أن يكون لمثلي بعد ذلك
رجاء ، فاني أرجو من الله الموت ومنك الكفن !..

الحياة جميلة

الحياة جميلة ، وما يشوه جمالها غير هذا الحيوان المسمى بالانسان !
لم يعيش فيها كما تعيش سائر الانواع على رسم الفطرة وهدى الطبيعة
ووحى الله ، وانما عاش على قوانين من وضعه استمدها من أثرته وكبريائه
وهواه فكان شرا على نفسه وحربا على غيره •

ربما اقتتل الوحش والوحش أو الطير والطير في سبيل القوت أو
النسل ، ولكنه اقتتال الساعة لا يسبقه تدبير ولا يصحبه حقد ولا تلحقه
جريرة • أما الانسان فهو وحده كدر السلام وقذى الحياة ! أحيا لنفسه
بفضل ذاكرته ماضيا يحفظ الثأر ، وخلق لنفسه بفضل بصيرته مستقبلا
يحمل الخوف ، فكان حاضره بينهما قتالا مستحرا لا ينقطع ولا يفتر ، اما
دركا لثأر الامس الذي يتذكره ، واما كسبا لقوت اليوم الذي يتبصره ، واما
درا لخوف الغد الذي يتصوره •



الحياة جميلة واجمل منها الحي الذي يدرك هذا الجمال ويتذوقه
ويستوعبه ويكتسيه • فالطائر أجمل من الروض لانه عرف كيف ينقل ألوانه
على ريشه ، ويجمع الحانه في صوته • والاسد اجمل من الغابة لانه استطاع
أن يجعل رهبتها حية في رهبته ، وعظمتها ماثلة في عظمته • والجمال أجمل
من الصحراء لانه اندمج فيها فسير جبلها في هيكله وصور رملها على أديمه ،
والحوت أجمل من البحر ، لانه قطعة من الحياة صيغت من لين مائه وشدة
موجه وسرعة تياره •

وكأنما يدرك الطبيعة ويسايرها ويتأثر بها كل شيء من ناطق وصامت
الا هذا الانسان ! فقد خرج عن سنة الله في خلقه حتى اختصه بالانبياء

والرسل والمدارس والكتب ، وهيات ان يدخل النور عين الضير ، ويبلغ
الصوت اذن الاصم !



الحياة جميلة • وليس جمالها قصرا على قوم دون قوم ، ولا على
طبقة دون طبقة • انما الجمال وضاء الفن الالهي أشاعه الله في الارض
والسما ، وهى المذارك للاستغراق فيه والاستمتاع به • فمن كان ذا سمع
وبصر وقلب وجده في كل منظر وأحسه في كل حالة • فهؤلاء الذين يملكون
عليه وهم معرضون عنه قد فسدت فيهم طبيعة الحياة ، وتبلدت فيهم ملكة
الحس ، فانقطع ما بينهم وبين الوجود الحق والوجدان الصحيح •
ان الجمال وسيلة الطبيعة لحفظ الحياة وبقاء النوع ، تجمع به ما
شت ، وتؤلف به ما تفر • وهو بعد ذلك سرور النفس ونور القلب وسلام
الروح ، فمن تملأه في صورته الحسية والمعنوية في الكون كان له منه في
كل زمان شباب وفي كل مكان ربيع •



الحياة جميلة • ومظهر الشعور بجمالها المرح والبهجة ، فأينما تر
الخمود والكتابة تر الشعور الذي أدركه الكلال أو أصداه القبح أو أفسده
الشر ، فيموت فيه الوعي ، أو ينعكس فيه الجمال ، أو ينقلب فيه الخير ،
فالجمال في الطبيعة لا بد ان يجاوبه جمال في النفس • والصفاء في العيش
لا بد أن يعادله صفاء في القلب • ومن هنا استسر الجمال والصفو على
ذوي الحس المظلم والضمير الخامد •

كن جميلا تر الجمال في كل شيء حتى في الدمامة • ومتى امتلأت
قواك المدركة بمفاته ومباهجه حلي الوجود في صدرك ، وساغ المر في
فمك ، وسعيت الى مجال الجمال في النيل والجزيرة والريف ، فشذوت
مع الطير ، وطرت مع الفراش ، وسبحت مع السمك ، واستطعت ان تطاول
الاغنياء في العز وتشأهم في الغبطة ، وتقول لهم : ان السعادة بالجمال
أضعاف السعادة بالمال ، والمال لكم فجدواه عليكم ، ولكن الجمال لله

فجدواه على الناس •

الحياة جميلة ، وأنت يا ابن الحياة وارث هذا الجمال • فلم تزوي عنه وجهك وترسل عينيك بالحسد والحقد الى المترفين الخافضين وهم يتلهون بالقنص ، او يتزحلقون على الجليد ، أو يتمتعون بالسياحة ؟ ان في بلادك وضواحيها من الجمال المبذول والنعيم المشاع ما يكفكف ثورتك على الغنى ويلطف سخطك على الحياة • هذا هو النيل الجميل يجري بين ضفافه السحر ، ويخطر على سواحه الفتون ، فمن الذي يمنع جمهرة الشعب أن تداعب أمواجه بالمجاديف ، وتشق عابه بالزوارق ، وتقيم على شاطئيه مهرجانات السباق ومسارح اللهو ؟ انك لتمر على النيل في أي ساعة شئت من التهار أو الليل فتحسبه من الكون المخيم على شاطئه ومائه يجري في مجاهل الارض ولولا أن عليه جسورا لا مناص من عبورها الى الشاطيء الغربي لما ذكره القاهريون الا كما يذكرون المقطم !

★ ★

الحياة جميلة • ولكن جمالها يقتضي ان يكون لنا زعماء للهو يصححون ادراكنا للحياة ، ويرهفون أذواقنا للجمال ، ويهيئون قلوبنا للسرور ، ويشغلون اوقات فراغنا بالمسابقات الرياضية ، والمهرجانات الوطنية ، والسباحات النهرية ، والملاهي الفنية ، والمواكب الشعبية •

السلام

سبحانك يا سلام !!

لقد بسطت على الارض المحروبة جناحك الرفيق المشبل ، فاذا الدار
أمان والفرع اطمئنان والقلوب مؤتلفة والشمل جميع !

هذه ساحة الحرب أصبحت مرعى للقطيع الراجع ، وهذه آلة الموت
عادت كنا للحمل الوداع ، وهذا الوعل النطاح في أمسه لا يدري ماذا يصنع
بقريه في يومه ، وهذا الكلب الحارس نسي اللص والذئب فاستغرق في
نومه ، وهذه الجميلة تنعم بعيشها الغرير تحت سماء الامن ، فلاحهم على
والد ولا حزن على ولد !

★ ★

تباركت يا سلام !!

اقد مددت على الدنيا المكروبة ظلك الرخي الوارف ، فاذا الزرع
جسيم والخير عيم والحال متسقة والدهر مطيع !

هذه الغنم ترعى أثيث العشب هائلة فلا قنابل ولا نيران ، وهذه البير
تسبح في صفاء الجو هادئة فلا صواعق ولا دخان ، وهذه السفينة تمخر في
عباب البحر مطمئنة فلا طرايد ولا قرصان ، وهذه الطبيعة تفرق في فيض
النعيم ووضاء الفردوس مسترخية فلا خصام ولا عدوان !

في نخب الفيشاوي

جلست أنا وصديقي شاعر الجندول علي محمود طه في قهوة « الفيشاوي » عشية يوم الاحد الماضي تتحسى اقداح الشاي العنبري الهنيء ، بعد افطار من طهو رمضان الدسم المريء ، وكان الظلام قد هب بنموج لطيفا بين المصابيح الزرق كانه ظلال الاجنحة الخفاقة في جو بنفسجي قاتم ، والحركات الهامدة والاصوات الخاشعة قد اخذت تتخلص رويدا رويدا من فترة الصيام وسكرة الطعام ، فهي تنتعش في البيوت ، وتنتشر في الشوارع ، ويقبل الناس على المقاهي فيلقون ثقل بطونهم على مقاعدها ليعالجوها بالافاوية المنبهة والاشربة الهاضمة . وكان صديقي الشاعر قد مطلق بعد شايه يكركر في شيشته الاعجمية وقد انمى من خياله السباح جندول البندقية ، فلم يعد يشعر الا بعطر الشرق وسحر الشرق ونور الشرق ، وتراءت له من خلال ما يجلوه الحي (الحسيني) على عينيه من مختلف الاجناس والالوان والصور ، بقايا الملك الاسلامي العظيم ، ودلائل المجد العربي الخالد ، فلم يتمالك أن قال في لهجة تنم على الاسى والاسف :
— يا ضيعة الشعر ويا ضلة الشاعر اذا لم يسجل هذا الملك في ديوان ،
ويخلد هذا المجد في ملحمة !

غصت القهوة على عاداتها في ليالي شهر رمضان بالسامرين من كل لون ومن كل طبقة ، وكان القمر يضرب باشعته الباردة الرخية في ضوء المصابيح الداخلية فيشعشعه ويقويه ، والمذياع على جدار القهوة ينقل الاغاني المسرومة في فرقة وصخب، والجالسون يتجادلون في السياسة أو يتحدثون في الادب، والندل يذهبون ويجيئون والسنتهم لا تفتر عن ترديد النداءات .
وعلى حين فجأة سكت المذياع وانطلقت صفارات الانذار تردد نعيها

المتقطع ، فأطفيء النور ، وأخذت الناس زلزلة من الفزع ، فنهضوا وتجمعوا ودخل بعضهم في بعض كما تتداخل خراف القطيع اذا داهمتها العاصفة ، ثم تدافعوا متدققين في داخل القهوة وهي قبو مظلم مسلوكة تحت بيت ضخم من البيوت القديمة ، وعلى جانبي هذا القبو حجرات ضيقة من غير أبواب للخلوة أو للعب ، فدخلت أنا وصديقي احداها فوجدنا فيها شيخا هادئا يكركر ، وشابا مضطربا يثرثر ، وآخرين قد ألجمهم الذعر فهم في وجوم ذاهل . ثم أنصت الناس ونظروا فلم يسمعوا رعدا يقع ولم يروا برقاً يلعلع ، فتساير عنهم الخوف ، وتذكروا ان القدر لا مفر منه ، والقضاء لا حيلة فيه ، فأخذوا يتنادرون على الصفارات والغارات . ويجددون ما أريق من الاكواب وأطفيء من الشيشات .



ليت الذي صبغ وجوه المصاييح باللون الازرق ^(١) استطاع أن يصنع وجه القمر ! لقد كان أجدادنا القرويون يقولون : « لم يبق من ليالي الهناء غير ليالي البدر » . فهل يصح هذا القول اذا قلناه اليوم ؟ ان بزوغ القمر أمسى نذيراً بالغارة ، ودليلاً للجارة الى قتل الجارة . فمن يزعم الان أن الليل لا يزال لباساً ، وان الناس لا يزالون ناساً ، فقد جهل أن العالم الحاضر يسوسه الشياطين ، فهو يرتكس ليسقط ، ويتكس ليموت !

قال لي صاحبي وقد أعلنت الصفارة بصوتها المتصل زوال الغارة الاولى : قم بنا تلمس الطريق الى مكان آخر تتنفس فيه من كربة الحر والحرب .

فقلت له وأنا أحسبه على كرسيه : هنا يا صديقي مخبأ هيأته لنا وقاية الله ، فاذا تركناه وأدركتنا غارة اخرى فأين نخبيء ؟

ليس في القاهرة ولا في غير القاهرة مخبأ حصين يعرفه الجالس في

(١) صبغت المصاييح العامة باللون الازرق في زمن الحرب تعمية للطائرات المغيرة .

بيته أو السائر في طريقه • ولا ادري أي ضرب من ضروب الغفلة اطبق على
مصلحة الوقاية المدنية فلم تقم بانشاء المخابىء الصالحة على وضعها الصحيح!
هل أخذوا على الدهر عهدا بالامان، أم حسبوا ان بضعة خاديد في أمكنة
متباعدة مجهولة تعصم سكان القاهرة وهم في المنازل أو في الطريق من
شظايا القنابل ؟

ليس من صالح الرأي يا صديقي ان تجهز قصور السراة ودور
الحكومة بالمخابىء المسلحة المريحة، ثم يقال للشعب المسكين تبرع بالقروش
لتشق لك لحدودا في ظاهرها الحمام المنقض ، وفي باطنها الزحام المهلك •

الشتاء

الشتاء! الشتاء! وماذا تفهم من الشتاء يا ابن مصر الضاحية الضحوك؟
هل تفهم منه الا أنه أسايبه من عمر العام لا تدري أهى أواخر خريفه أم
أوائل ربيعہ ؟ هل تجد في جسمك غير دفء النعمة وفي نفسك غير بهجة
الانس ، وفي عينك غير اشراق الجمال ؟ أنظر الصفحة اليمنى تر الشتاء
الغربي الذي جعله الله شيخوخة الطبيعة، يسلبها الرواء فلا تعجب، ويحرمها
النماء فلا تخصب ، ويلقى عليها الهمود فهي سكون خافت وصمت ثقیل ،
ويلفها في كفن من الثلج نسجته ليليل ، ثم تقشع الارض ، وتكفهر السماء ،
وتقع الحياة بين القحط والموت فتتن بالرعود وتتأوه بالاعاصير ، وتتساقط
على الشجر السليب والثرى الكئيب والقرى الموحشة هما في الصدور ،
وبؤسا في الاكواخ ، ورهقا في العزائم •

ان الشتاء في غير مصر زمهرير جهنم ، تتنفسه كما تقول الاساطير
فلا يذر من شيء يهب عليه الا أحرقه بالقر وأغرقه في الصقيع • أما في مصر
فالشتاء في الناس لا في الطبيعة • والشتاء في الناس برد في الدماء ، وخمود
في العواطف ، وقحط في الانفس • فلو كان كل من على النيل صافي القلب
كسمائه ، عذب الخلق كمائه ، طلق اليد كفيضه ، ضافي المعروف كأرضه ،
لكأن هذا الوادي الحبيب جنة الله في الدنيا ، أزلفها لجنس من خير
الاجناس ، خلقة وسطا بين الملائكة والناس ! ولكن ... وما اسخف الحياة
ما دامت فيها لكن !

الأمل

أجل يا صديقي : الله في السماء والامل في الارض ! وبين روح الله
المواسي ، ومدد الرجاء الاسي ، تندمل الجفون القريحة ، وتلتئم القلوب
الجريحة ، وتنتعش الجدود العائرة •

الكروان يموت فرخه في المساء وفي الصباح يرقص ويصيح ، والشاة
يذبح حملها في الحظيرة وفي المروج تشغو وتمرح ، والقلب يقطع من القلب ،
والروح تنزع من الروح ، ثم يعيش المحب بعد حبيبه ، والوالد بعد ولده ،
كما يعيش النهر الناضب في ارتقاب الفيضان ، والروض الذابل في انتظار
الربيع !

لله على الناس نعمتان لا يطيب بدونهما العيش ولا يبلغ الا عليهما
العمر : النسيان والامل •

ماذا كان يصنع الاسى بالقلوب الوالهة اذا لم يمح النسيان من الذهن
صورة الحبيب الراحل او الهاجر ؟ تأمل حالك يوم فجعلك الموت في عزيز
عليك ، اما كنت تجد لهيب الحزن متصلا يوقد صدرك من غير حبو ، ويذيب
حشاك من غير هدنة ؟

تصور دوام هذه الغار على نياط القلب وأعصاب الجسد ، ثم قدر
في نفسك الحياة على هذه الصورة • على أنها والحمد لله لا تدوم ، فان
الجبار الذي سلط الالم على الروح ، هو الرؤوف الذي سلط الزمن على
الالم • فالزمن لا ينفك يسحب الايام والليالي على الصور والاثار حتى
تنطمس المشابه ، وتغفو الرسوم ، ولا يبقى من المفقود الا صورة لا تنطق
ولا من الجرح الا ندبة لا تحس •

وماذا كان يفعل اليأس بالنفوس المكروبة اذا لم يفتح الامل أمامها
فرجة في الافق المطبق وفسحة من الغد المجهول ؟

يا ويلتا للفقير يعتقد ان فقره يدوم بدوام الحياة ، وللمريض يرى أن
مرضه ينتهي بانتهاء الاجل ! ويا بؤس للحياة اذا لم يقل المأزوم والمحروم
والعاجز : اذا كان في اليوم قنوط ففي الغد رجاء ، واذا لم تكن لي الارض
فستكون لي السماء !

(اذا كانت الحياة وردة ، فان الامل كمامها)

من فكاهات العهد التركي

تركية القديمة — غفر الله لها — كانت في دول الارض معنى من معاني الارهاب حروف لفظه السم واليم والسجن والسيف والسوط ! جمعت في يدها القوية أطراف الشرق والغرب، ثم أدارت حول تاجها الرهيب هالة من خلافة الرسول فغنت لجلالها الوجوه ، وخشعت لسلطانها الافئدة، ولكنها لم تستطع ان تثبت ملكها بقوة الروح وبراعة الذهن وعبقرية البيان كما فعل العرب ، فظلت واقفة امام شعوبها الثائرة عابسة الوجه منشورة الشارب مشهورة السياف ، فحرمها ذلك الموقف نصيبها من طمأنينة السلم ومدنية العلم ونعمة الثقافة . وكان ولايتها على الامصار الخاضعة يحكمون الناس بهذه العقلية الجهول ، فيظهرون الابهة وينشرون الرهبة ويحصدون الاموال والانفس بالضرائب والرشى والمصادرة والقتل . فاذا طالت الولاية واكتظ الوالي ورضي (المابين) وأراد الباشا ان يفكر في الدين أو في العلم او في الاصلاح ، دل على فهم بليد وغفلة عجيبة !

كنا في ذات يوم نتحد في هذا وفيما جره على الامة العربية من الجهل والذل والفقر ونحن جلوس في ندوة محافظ بغداد يومئذ ، وهي ندوة تقوم في داره المضيف صخى يوم الجمعة من كل اسبوع فيندو اليها الوزراء والزعماء والادباء والقادة ، فيكون لكل طائفة منهم حلقة وحديث ولكن الزهاوي كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة ، لان جميلا كان آية الله في فكاهة الطبع وظرف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . وكان له في القاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار اللب نشوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

كان الحديث أول ما بدأ أن الحرب وأوزارها استقلت بمواهب الترك فلم تدع لهم كفاية للسياسة والثقافة ، وأخذنا نضرب الامثال على ذلك مما جرى في العراق ومصر . وكان المرحوم الزهاوي بجاني ، ولكنه كان مشغول الاذن بكلمة منافقة في العقاد والرصافي ألقى اليه في خفوت وخبت . فلما تشربها سمعة وأجاز عليها القائل ببسمة وهزة وسكارة ، أقبل علينا فسمع طرفا من الحديث نبض له نابضة فقال : هو هوه ! اذ حدثتك مولانا عن حمق الولاة من الترك لا ينتهي الحديث ولا ينقضي العجب !

ثم أرسل نكته الحاضرة وضحك ضحكته الساخرة ، فتنبه المجلس الى ان الزهاوي سيتحدث ، فسكت المتكلم وأصغى المستمع وتهيأت النفوس للسرور الشديد والضحك المتصل ، وأخذ الشاعر يقول :

أرسلت إلينا الدولة العلية بعد جفاف الريق والمداد من شكوى الجهل والفساد ، واليا يسير بالعراق في طريق العمارة والعلم ، فقابله البغداديون باحتفال عظيم وفرح شامل . وكان لي يومئذ يد في ادارة التعليم كما تريده الدولة ، فقال لي الوالي ذات يوم : انا نريد ان نشيء مدرسة للبنات فابحثوا عن دار تصلح ان تكون لها مكانا . وكان تعليم البنات في ذلك العهد أملا من آمال المصلحين تتقارع حوله الاقلام بالحجج في غير طائل . فقلنا ان الرجل رحب الباع في الاصلاح ، ودللناه على جملة من الدور الكبيرة الصالحة ، فكان كلما دخل دارا قال ان الابصار تجرح البنات من هنا ، والاسماع تشرق الاصوات من هناك ، حتى لم يدع في بغداد دارا الا عابها هذا العيب من طريق التوهم او التخيل ! وظهر من تصرف الرجل ان به بلاهة وغفلة ، فخطر لي ان أتداعب عليه لاكشف حاله للناس فلا يستنيموا لحكمه . فقلت له : أفندم لم يبق في البلد كله الا مكان واحد أرجو ان يقع من هوائك موقع الرضى . فقال : امض بنا اليه . فذهبت به الى (منارة سوق الغزل ^(١)) وصعدنا فوقها ، فلم تكد قدمه تستقر على

(١) منارة عريضة طويلة من آثار العباسيين نهب الناس المسجد من حولها وتركوها قائمة وحدها اليوم .

شرفتها العليا ، وعينة تقع على سطوح بغداد وهي متظامنة تحت المأذنة العالية ، حتى شهق من الفرح وصاح ببلء فيه : نعم ! نعم ! هذا هو المكان المناسب !

ثم نزل وفي نيته ان يتخذ الالهة من المقاعد والادراج ليفتتح المدرسة فقلت له مولانا ! لا بد أن تجمع الناس قبل الافتتاح لتقنعهم بتعليم بناتهم فانهم سيئو الرأي في ذلك التعليم . ونجاح الامر موقوف على ان يعتقدوا فيك التقى والورع . وسأذلك على أقرب الطرق لتحقيق هذا الاعتقاد :

اذا اجتمع الناس واكتظ بهم الديوان جلست أنت في الصدر ، وجلس عن يمينك وعن يسارك رجال المعارف ، ثم تشعل (شبقك) وتأمر كلا منهم ان يفعل فعلك ، ثم تبتيديء فتذكر الله بصوت موقع على ضربات كفي وأنت تميل رأسك من الشمال الى اليمين تارة ، ومن الخلف الى الامام تارة ، وأنا والحافون من حولك تتابعك في كل كلمة وفي كل حركة . ثم حاول ان تأخذك الحال ويستخفك الذكر ، فكلما أزبد الفهم وأرعد الصوت وتشنج الجسم وهاج الدم ، كان ذلك أحمل للناس على ان يعتقدوا فيك الولاية فتقودهم صاغرين الى ما تريد .

وصدق الوالي كل ما قلته له تصديقا لا تتخلله فيه شبهة . وجاء يوم الجمع واحتشد الاعيان والوجوه يسمعون ماذا يقول الوالي . وجلس الباشا وأنا بجانبه وشيوخ المعارف من حوله ، وأمر فأشعلت (الغلايين) الطويلة ، وأخذ يذكر ويترنح وأنا أرسم له ، والشيوخ يذكرون معه ثم غمزته بعد حين فتهور و (تطور) وأرغى . وتظاهرت أنا بجذبة الوجد وسكرة التجلي فقرعت غليونه بغليوني ، ثم اخذت بلحيته البيضاء ورأسه الاصلع ، ففعل بي مثل ما فعلت به ، واخذنا تتدحرج على البساط ، فمرة اكون فوقه ، ومرة يكون فوقي ، والشيوخ يعجون بالذكر ، والناس يضجون بالضحك ، وأنا والوالي قد ملكتنا حميا الولاية فدخلنا في صراع عنيف لم يخرجنا منه الا انقطاع النفس . فجلسنا مسترخين نلهث من الاعياء وكلانا ينظر الى صاحبه نظر الديك المنتوف الى الديك المهيض . وذلك يا مولانا هو الوالي الذي اختير لتعليم الجاهل وتصحيح المريض !

ربيع و ربيع

هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة • صفاء من سلام
النفس يفيض بشرا في العين وطلاقة في الوجه ، ورواء من ألق الشباب يشع
نورا في السماء وسرورا في الارض ، ورخاء من نعيم الطبيعة ينتشر عطورا
في الجو وزهورا في الروض ، واتشاء من رحيق العيش يشيع لذة في الحس
وبهجة في القلب ، وهدهدة على أرجوحة الحب تذهب مع الامل الباس
وترجع مع الرضى السعيد •

★ ★

هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة : استغراق في أمان
الله واطلاق لمتاع الحياة ، واتساق ربيع العمر مع ربيع العام ، واتحاد الجمال
الالهي المائل في وشاء الحقول وأقواف الخمائل واعطار النسيم وألحان الطير
وانفاس الاحبة • فأين — بالله ربكما — اجد الفرق بينكما وبين ملكين
يعتقان في نشوة الخلد، ويأتلقان في وضاعة الفردوس ؟ أفي النظرة الساهمة،
أم في البسمة الحاملة ، أم في الفتنة النائمة ، أم في الخلو الحقيقي بالطهر ،
أم في الحنو الخليق بالامومة ، أم في الدهول الغريق في اللذة ، أم في الصبا
الذي يضوع . بريح الجنة ، ام في الحلم الذي يصل باللانهاية ؟

★ ★

هذا ربيعكما يا فتاتي الفاتنة ويا طفلتي الجميلة ، وما كان احرى
الناس أن يكون لكل امرئ ربيع مثله ! ولكن النفوس اذا عاث فيها الشر
اجدبت فلا تربع ، واضطربت فلا تطمئن !

هذا ربيعنا يا زهرتي النضيرتين يلفح بالسموم ويطفح بالهموم
وبضطرم بالعداوة ! كانما استخلف الله الشياطين على حكم الارض ففي كل

دولة ابليس ، وفي كل أمة جهنم ، ومن طباع الالبليس كراهة الفراديس ،
فهم لا يريدون سلاما في وطن ، ولا يحبون ربيعا في زمن ، ولا يدعون آدم
في جنة •

هذا الزعيمان الجباران أصابهما الله بنمو القرون فجأة ، فتأبها وتألها
ونازعاه ملكوت الارض ، فأحدهما يريد ان يعبد الغرب • والاخر يريد
ان يعبد الشرق ، وهما لذلك يحشدان كل ما في الجحيم من سموم ونيران
وحمم ليديرا في ايام معدودات سكان الدنيا وحضارة الدهر ! والعالم كله
قد وقف أمام الشيطانين موقف الدفاع ، لا تنتج معاملته غير الخراب ، ولا
تخرج مصانعه غير الموت ، ولا تحرك دوله غير الجيوش ، ولا يفكر ناسه
الا في الحصون والخنادق والاسلحة والمخابي والاقنعة !

فكيف يكون لربيعنا في هذا الجذب ازدهاء ، ولنفسنا على هذا
الفرع استقرار ، ولحضارتنا مع هذا البلاء استمرار ، ولحياتنا على هذه
الحال المحزنة جمال ولذة ؟!

لعن الله يا ابتي حواء شياطين الانس وشياطين الجن ، فانهم لو لم
يخلقوا لكنت الارض كلها جنة ، والناس كلهم ملائكة !!

مقاله اجتماعیه

الفردية علننا الأصيلة

لا تزال الفردية أبين الصفات المميزة للعرب . ولا تزال هذه الصفة أجلى ما تكون في مصر ! فان المرء ليفالي في فرديته حتى ليوشك ان يكون أمة واحدة !

غلبت هذه الشيمة على العرب الاولين لقلّة المرافق المشتركة ، وأثر الطبيعة الشحيحة ، ووحدة الحياة الرتيبة ، واثقل النفس القوية فالرجل منهم كان يحصر الدنيا في خيمته ، ويجمع العالم في قبيلته . ثم يختصر القبيلة في نفسه فيجعلها قاعدة لتمثاله واطارا لصورته ! فهو لا يحيا حياة بهائم الانعام تحمي ضعفها بالاجتماع ، وانما يعيش عيش سباع الطير والوحش لا تشبل على افراخها وأجرائها الا ريشا تترتاش وتضرى . فلما اختيروا للدعوة الكبرى، استجابوا لقوة القوى ، واطمانوا الالفه الروح ، واستجروا لحكم الجماعة ، حتى بلغوا رسالة الله . ثم تحرك فيهم الهوى الموروث وتيقظ الطبع الاثر ، فهبت الفردية تحلل العقدة ، وتشتت الوحدة ، حتى قسمت الوطن بلادا ، ومزقت الشعب أفرادا ، خضعوا لسلطان المغير ودانوا لقوة الغاصب !



لا تزال هذه الفردية القبيحة وتوابعها من شهوة الرياسة وحب الاستثثار ودناءة الحرص ، تقطع اوشاج المجتمع في أقطار العرب ، فتفسد كل موضوع وتبطل كل مشروع وتشعث كل ألفة ، وفي مصر احد تلك الاقطار تستطيع ان تعرض جملة أمرها على رأيك فتجد المثال الذي لا يبعد والحال التي لا تختلف . فالسياسة هنا وهناك لا تكاد أحزابها تقوم على فكرة جامعة ومبدأ متحد . انما هي فرد ينه في الخير او ينبغ في الشر ،

فتألف عليه الافراد المختلفون فيكون منهم مكان النظام (١) من العقد بمسكه ما دام حيا قويا، فاذا انقطع ذهب الحبأباديده. والاقتصاد هنا وهناك جهود فردية تخشى المنافسة وتتعجل الربح وترضى بالنصيب الاخر ، لان الفردية قتلت فينا الثقة فلا نساھم في رأس مال ، وأضعفت شعورنا بالخير العام فلا تشارك في مشروع ، ونشرت بيننا داء الحسد فلا نستقيم على رأي جميع . وما النهضة الاقتصادية الحديثة الا نبوغ فرد أنس الناس بناحيته واطمأنوا الى كفايته ، فأخلدوا اليه بالثقة وألقوا في يده المقاليد . والادب هنا وهناك لا تزال دوافعه فردية ومرامية خاصة ، فالقصيدة عواطف الشاعر لا تكاد تخرج عن دوائر نفسه ومدارج حسه ، والمقالة خواطر الكاتب لا تكاد ترمي الى غرض محدود ولا تجري في مذهب معين، والاغنية لواعج المغني فلا تعبر عن المعاني العامة ولا تهتف بالاماني المشتركة . أما الملاحم القومية والقصص الاجتماعية والاناشيد الشعبية فتلك أغراض تزال منابعها ناضبة ودوافعها دخيلة .

يأخذ الفرد حال من الوجد او الشوق أو الطرب فيجد من القصائد والاناشيد ما يترجم عن هذه الحال فيدندن ويتغنى . وتكون الجماعة منا في مجمع من المجامع او ملهى من الملاهي او موكب من المواكب فيأخذها انفعال مشترك من ابتهاج او احتجاج او افتخار او تحمس ، فتريد ان تعبر عن ذلك بقول واحد وصوت واحد ونغم واحد ، فلا تجد الا خلجات تتوقد ، ونظرات تتردد ، ثم سكوتا باردا كعرق المبهوت الخجل ! حتى السلام الوطني (٢) نغمة نغما ولا نغمة كلما ، كأنما وضعوه لامة بكماء !

كذلك الفن هنا وهناك لا يجد من حرج الفردية مكانا للتنوع ولا مجالا للتقدم . فالتصوير كالشعر قلما يتعدى صورة الفرد وعاطفته . والرقص حتى من الرجال لا يكون الا من فرد ، ولا يظهر من هذا الفرد الا متعاقيا على أجزاء خاصة من جسمه كالعجز والبطن والثدين والعنق !

(١) النظام : الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ ونحوه .

(٢) نشيدنا قبل الثورة .

فهو حركات متقطعة مستقلة كأبيات القصيدة في العصور الخالية لا تربطها علاقة ولا تجمعها وحدة • والغناء والموسيقى يقعان دائما على اصوات مفردة وتقاسيم مرددة ، وفرديات (مونولوجات) متشابهة ، ومعان متكررة ! فليس لنا حتى ولا للقرويين - غناء جماعي ولا رقص جماعي يعبران عن شعور الجماعة ساعة الطرب أو الغضب أو النصر بكلمات موقعة وحركات موزونة ! ولكل أمة من أمم الارض أفنان شتى من ذلك حتى الزنوج !

ان الفردية تعلو فتكون الاستبداد ، وتسفل فتكون الانانية ، وان الجمعية ^(١) ترتفع فتكون الانسانية ، وتنخفض فتكون العصبية • وان بين الانسانية والعصبية شعبا يعز وأمة ترقى وذكرا يبقى وأثرا يخلد • ولكن بين الاستبداد والانانية تحكم الهوى وشقاء العيش وذل الابد • فاذا رأيت الاحزاب تتناقض وتنحل ، ومشروعات الشباب تضعف وتعتل ، وادارة الحكومة تسوء وتختل ، فأرجع علل ذلك - غير مخطيء - الى هذه الفردية حين تتعلو فتستبد ، أو حين تتدلى فتستأثر • فلولا هذا الطبع الاصل الذي طغى على الشعور وبغى على الفطرة لتنبه فينا الضمير الاجتماعي فأخلصنا للامة كما نخلص للأسرة ، وعملنا في الديوان كما نعمل في البيت ، وأحبينا لعامة الناس ما نحب لخاصة النفس ، ولكن الفردية داء دخيل لا يحسمه الا الدين الذي حسمه عن نفوس العرب حين اتبعوه • فهل الى رجوع اليه من سبيل ؟

(١) الجمعية : مصدر صناعي يقابل الفردية

عيد الفقير

وارحمنا للفقير قبيل العيد ! يرى متاجر الملابس واللعب والحلوى قد ازينت واجهاتها البلورية بالعروض الجذابة والنماذج المغرية ، فينظر اليها نظر الراغب المحروم ، ويذكر أطفاله وهم يحملون بالثوب الجديد واللعبة المسلية والاكلة الشهية والنزهة الممتعة ، ويعتقدون ان اباهم قادر على ان يجعل عيدهم سعيدا وحلمهم يقظة ، فيكر به الاسى وتصيح الحسرة في نفسه بهذه الشكوى :

— حنانيك يا رباه ! هذه نعمة واسعة سابقة ، ولكن القدر لحكمة لا يدركها البصر المحدود جعلها لغيري لذة بالقدرة ، ولنفسي ألما بالعجز ، ولاولادي شقاء بالحرمان . فليت القدرة تعرف الرحمة ، وليت العجز يدرك المعونة ، وليت الحرمان يخطيء الطفولة ، وليت الايام تمضي الى غايتها من غير عيد ولا موسم !

ان الاعياد مذلة للوالد الفقير وفضيحة للبيت البائس ! ففي الايام الاخر يستطيع العائل المسكين ان يغلق بابه على بؤسه ، ويروض أهله على مكروهه ، ولكنه في العيد لا يستطيع ان يضرب على الاذان ، ولا أن يخيم على العيون ، فان المدافع تقصف في القلاع ، والمزامير تعزف في الشوارع ، والناس يمرحون في الملاهي ، والاطفال في المراكب والمواكب يرفلون في الوشي ويلهون باللعب ، فأولاده لا بد سائلون :

يا أبانا ، أين الثوب الذي نلبس ، واللحم الذي نأكل ، والقرش الذي ننفق ؟ أهذا العيد لناس دون ناس ، أم هو ذو وجوه شتى منها العابس والباسم ، ومنها الدميم والحسن ؟ ولم آثرنا نحن يا أبانا بهذا الوجه الشميم الكالح ؟

ولكنه يجيهم بالدمعة الباردة ، والزفرة المحرقة والنظرة الحزينة فلا

يفهمون الا أنهم أحقر من هؤلاء الاطفال ، وأن أباهم أفقر من هؤلاء الرجال . أما علة هذا التفاوت والهنا واحد ، وأبونا واحد ، وملكننا واحد ، ووطننا واحد ، فعلمها سيأتهم مع الايام اذا ما خرجوا بأنفسهم الى الحياة فرأوا المكظوظ الذي غصب رغيف الجائع ، والملف الذي نهب كساء العاري ، والممول الذي سرق نصيب المحروم .

★ ★

عرفت رجلا كان يشتغل مياومة في مصلحة من مصالح الحكومة فلما قل عليه العمل استغنوا عنه ، ولكنه لسوء حظه لم يستطع ان يستغني عن الاكل ، ولا ان يفتح اولاده بالصوم ، فراح يطلب العمل في كل مكان ، والمعونة من كل انسان ، فلم يجد . ودخل عليه عيد الفطر من هذا العام وليس في يده مال ، وكان قبل نكته بأسبوع قد وعد الكبار بالبذل والصغار بالهدايا ، فسبحت أخيلة الاطفال في جو من الاخلام عجيب الالوان عبقري الصور ، وأسرت ألسنتهم الثرثرة الى اشاعة ذلك في الرفاق والجيرة . فغم على الرجل الحال ، واعتلج في صدره الهم ، واصبح حيران لا يدري ما يقول ولا ما يفعل . تمنى الخروج من هذا المأزق بالمرض او الموت ، ولكن المرض او الموت اذا أصبح أمنية الفقير امتنع كالخير وعز كالسعادة . فاحتال على العلة بالجوع ، فصارع النهار والليل حتى هجعت عيناه وانسرت قواه وبانت عليه نهكة المرض .

ودخل العيد بضوضائه وخيالاته على هذه الاسرة البائسة فوجدها عاكفة على سرير مريضها المروع ، مضرمة الانفاس ، لهيفة القلب ، لا أمل لها الا أن يعافي عييدها ويحيا . فأنكفأ العيد النشوان المرح خجلان عن هذا المنظر الاليم الى مجالي البهجة والنعيم في قصور الكبراء والاغنياء والسادة ولولا هذه الحيلة التي أتقذت هذا التعس بالمرض من غير موت ، لاشفى به الخجل والهم على الموت من غير مرض !

★ ★

تباركت يا الله ! لقد جعلت في عيد الفطر زكاة ، وفي عيد النحر تضحية . فهل فهم ذرو القلوب الغلف والبصائر العمي من شرعك العادل ان الفقير يزكي بقوته حتى يعجز والمسكين يضحي بصحته حتي يموت ؟!

حفلة أدبية

أدبت السيدة (ا. خ) مآدبة لرجال الادب ونسائه ، كانت على رأي من شهدوها مظهرا لذلك الادب النغل^(١) الذي يعيبك أن تعزوه الى وطن وان تنسبه الى أمة !

تفرنس فيها المدعوون حتى حماة اللغة والادب ! بعضهم ملكته الحذقة فاستكثر ظرفه وعلمه على اللغة العربية • وبعضهم غلبته المجاملة فخطب الادبيات بلغتهن ، ولغتهن الفضلى هي الفرنسية • وكان الذين يتعصبون للعربية او يتأدبون بالانجليزية قلالة قد انتشروا في غمار الحفل أول ما دخلوا • فلما أنكروا اللسان المتحدث بين القوم تراجعوا متزايلين مستوحشين الى هامشه • ثم طفقوا ينظرون بعين المتفرج المتعجب الى جمعي المذكر والمؤنث وهما يضطربان في الابهاء والحجر على غير قياس •

هذا يمثل الباريسي البق فيسلك طريقه في السلام ، ويتخذ لهجته في الكلام ، ويسمى ستمته في التطرف وهذه تمثل احدى (علامات) مولير فتتصنع المعرفة ، وتتكلف الذكاء ، وتقدر نفسها بالقياس الطويل والوزن الثقيل ، فيماليق الذكي ويصدق الابله • وهذان يتضحكان لحركة لاحظاها او نكتة قالها ، ثم يكتكتان في الضحك ليلفتا اليهما السمع المشغول والنظر الغافل • وهاتان تتحدثان ووجهاهما متقابلان ، ونظراهما متدابران ، وكل منهما تبحث ذات اليمين وذات الشمال عن محدث او معجب ، وهؤلاء يتناقشون في موضوع غريب لم يوحه الوطن الذي نحيا به ولا المجتمع الذي نضطرب فيه ولا الادب الذي نعيش له ، وانما أوحاه رأي في كتاب

(١) النغل : ولد الزنا

أو مقال في صحيفة جاء به البريد الاخير من البلد الذي استوطنوه بالفكر
واستقبلوه بالعبادة !

حدثني احد الذين دعوا الى هذه المأدبة وهو أديب ظريف لا يعرف
لغة هذا الصالون قال : كنت جالسا وراء القوم كأنتي أحد (أولاد البلد)
في دار من دور السينما يشاهد فلما فرنسيا ، فهو يرى ولا يعلم ، ويسمع
ولا يفهم ، ولكنه مأخوذ بالمناظر التمثيلية التي تتقلب على عينيه ، فيغيب
وهو حاضر ، ويحلم وهو يقظان • فإذا خشيت أن يلحظ الناس انقباضي
عنهم بطول القعود قمت أنتقل بين المثنيات والجموع فأجدني أشبه
بالاطرش في الزفة ، يرى الوجوه تنبلج ، والشفاة تنفرج ، والايدي تتحرك،
وهو شاخص البصر ، مغفور الفم ، لا يدري ما الذي يشيع انسرور ويبعث
الضحك • ثم جلست على مقربة من الاستاذ المازني فرأيت ربة الدار تقبل
عليه وتقدم اليه سيدة يقولون لها من الاديات النوابه • عرفت اليها
الاستاذ ونوهت بأثره في الادب ومكانه في النهضة ، ثم تركتهما معا وذهبت
اني غيرهما • وانتظر الاستاذ ان تتحدث اليه السيدة الادبية في قصة من
قصصه أو في رأي من آرائه ، فيكون في ذلك بعض الترضية للادب العربي
المهان في بلده وبين قومه ، ولكن السيدة الادبية بدأت الحديث بهذا
السؤال :

— حضرتك من مصر ولا من الشام ؟

ولا أدري ألقت على المازني كلاما فيه معنى أو دلوا فيه ماء ! فقد
تخلص منها بلباقة وأقبل علينا يقول :

واضيعته ! أبعد ثلاثين عاما قضيتها في الادب أكتب في كل يوم مقالا،
وألقي في كل اسبوع محاضرة ، وأخرج في كل سنة كتابا ، أجد في المتعلمات
بالقاهرة من تسأل : أمن الشام انا أم من مصر ؟!

★ ★

هذه حفلة أقامتها صاحبها الادبية لصحابتها الادباء • وقد رأيت

وسمعت كيف كان حرص أدبائنا على اللغة ، والى أين بلغ علم أديباتنا بالادب . فهل تصدق ان يكون لهؤلاء أدب مستقل وهم ينكرون أن لهم لغة مستقلة ؟ لا جزم ان هذا النوع من هذا الادب الحرام يزيّف الاديب على امته كما يزيّفه على الامم الاخرى . واذا جاز لاولئك السيدات الادبيات ان يلغون بغير لغتهن بحكم نشأتهن وطبيعة ثقافتهن ، فكيف يجوز لاساتذة اللغة وزعماء الادب ان يديرُوا في أفواههم ذلك اللسان الاجنبي وما كانت قيمتهم في الناس ولا دعوتهم الى هذا الحفل الا انهم يحذقون اللغة العربية ، ويتزعمون الثقافة العربية !؟

ان من هوان نفسك عليك واهانة جنسك في الناس ان تتكلم غير لغتك في بلدك وبين قومك من غير ضرورة ولا مناسبة ، فان ذلك ان دل على شيء فانما يدل على عدم استقلالك في خليقتك وعقيدتك ونمط تفكيرك وأسلوب عملك .

هل تستطيع ان تدلني على بقعة من بقاع الارض غير مصر ولبنان يجتمع في دار من دورها مجلس من مجالس الادب يحضره ليف من أساتذة الجامعة وجهابذة الادب وأقطاب الصحافة ، ثم لا يكون حديثهم الا بالفرنسية ، ويدور نقاشهم الا على موضوعات أجنبية ؟!

يا قومنا ان لغة المرء تاريخه وذاته ، فالغض منها غرض منه ، والتفضيل عليها تفضيل عليه . ولا يرضى لنفسه الضعة والصغار الا فهين أو عاجز !

رجل سعي

دخل عليّ هذا الرجل وأنا مكب على عمل دقيق حافز ، فلم يسعني حين رأيت ما عليه من سمت الوقار وسيماء الخير الا ان ادع ما في يدي وأفرغ له .

— نعم يا سيدي — !

— أنا رجل من أهل ... قرأت ما كتب في « الرسالة » عن الاخلاق ونكولها أمام الفرائض الوصولية في الانسان ، فساءني وايم الله أن تشتهب المعالم حتى يضل الهادي ، وأن تعترك الظنون حتى يشك المؤمن وليس لي قلم أضعه بين هذه الاقلام فيدلها على موضع الحق ، أو يعينها على مقطع الحكم ، فأثرت ان اشخص اليك لاكون امامك مقالا حيا يقرر ودليلا ناطقا يؤيد .

وفي الحق ان الرجل كان في بزته العربية المهندمة ، ولهجته الطبيعية المتزنة ، كأنما ينطق عن وحي الفضيلة العليا . فقلت له : أتظن أن الفاضل ينجح بمحض فضله في هذا العصر الالي الاصم ؟

فقال : لا أظن وانما اعتقد . لا أنكر مع هذا الاعتقاد ان الفضيلة وعرة الطريق ، وأن الخير صعب المرتقى . وفي قول الرسول الكريم : « حفت الجنة بالمكاره » و « القابض على دينه كالقابض على الجمر » ما يصدق ذلك . ولكن الفضائل تعليم وتعويد ورياضة ، فاذا أوف^(١) غرسها في النشء ، وضعف أثرها في المجتمع ، دل ذلك على فشل الفضيلة .
أنا رجل واسع الثراء سابغ النعمة . وقد جمعت مالي الوفير من ذلك

(١) أوف الزرع : اصابة آفة .

الطريق الذي ألزمني اياه بي منذ الصغر . فليس في نصابه قرش زائف ولا متر مفتصب ، ورثت عن ابي الدين الصحيح على أنه دستور الدنيا ، والخلق الصريح على انه جوهر الدين . ثم زاولت التجارة بالصدق والصبر فاستغنيت ، واقتنيت العمائر والضياع فأثريت ، وأديت الصلاة فوصلت ما بيني وبين الله ، وآتيت الزكاة فأصلحت ما بيني وبين الناس . ثم أحصنت نفسي بالزواج الباكر فوهبت البنين ، وعصمت شهوتي من المتع الحرام فرزقت العافية ، وطهرت قلبي من الطمع الجاسد والخصام الحاقد فأوثيت السكينة ثم جهلت البنك فجهلت الربا والدين ، وانكرت المحكمة فأنكرت العداوة والظلم ، ووضعت فضل مالي في ايدي ذوي الخلق من انتجار يحفظونه لي ويستثمرونه لهم ، وجعلت أرضي في ذوي الدين من الزراعة يريعونها عليّ ويشغلونها عليهم ومسست بالمؤاساة والرحمة قلوب البائسين حولي فسللت منهم الضغينة . ثم كان لي في كل مبرة سهم ، وفي كل مستشفى سرير ، وفي كل مشروع وطني يد . فأنا أمشي في الناس ملحوظك الشهادة محفوظ الغيب ، لا تمتد يد الى مالي لانه مبذول للسائل والمحروم ، ولا ينبسط لسان في عرضي لان جاهي موقوف على المتعطل والمظلوم ، ولا ياتر احد بحياتي لان وجودي امان للشقي من البؤس والجريمة .

أما سعادتي في نفسي وولدي فهي اعظم وأتم من سعادتي في عملي ومالي أاجدني كنف الرجاء لكثير من الاسر الفقيرة ، ومصدر العزاء لطائفة من القلوب الكسيرة ، وارى في كل نظرة وفي كل بسمه وفي كل كلمة معاني لا تتناهى من العرفان والحنان والشكر ، فتعظم سعادتي في نفسي ، وتجعل دنيائي في عيني ، ويغمرني شعور من عزة المؤمن وزهو الخاشع ، لان حياتي لها هذا الخطر في حياة بعض الناس . ثم انظر الى بني الثمانية فأرى في وجوههم صورتني ، وفي صدورهم محبتي ، وفي شعورهم عاطفتي ، وفي ميولهم رضاي ، وفي آمالهم مناي ، فأقبل يدي ظاهرا وباطنا واقول لنفسي ، احمدي الله يا نفسي واشكريه فان عليا لن يموت ، وان ثراه لن يبيد ، وان بناءه لن يتقوض !

ذلك كله يا سيدي بفضل الخلق . فاذا كان قد تهيأ لمثالي على جهله بقواعد المدنية وضروريات العلوم أن يجمع بمعونة الله وحده هذه الثروة الضخمة وليس له رأس مال من ارث ولا فيض رزق من حكومة ، وأن ينال هذا الجاه العريض وليس له نسب عريق في أسرة ولا سبب وثيق الى سلطان ، وان يخلق من حوله هذا النعيم المقيم فيغرق فيه أهله وعشيرته ويبيته ، وان يرفع بناء الاخلاق الفاضلة في بنيه بالتربية وفي اهله بالقدوة وفي مواطنيه بالتقليد ، فكيف لا يستطيع معلمو المدرسة ووعاظ المسجد ومشروعو البرلمان أن يخلقوا في كل مكان هذه البيئة وتلك الجنة فيصلح المجتمع ويسعد العالم !

فقلت له وقد أعجبني عقله وأمتعني حديثه : يا سيدي ان من سعادتك وسعادة الناس بك أنك صاحب عمل لا صاحب علم ، وأنت رجل عزيزة لا رجل رأي . فلو كنت من كهنة العلم لصعدت الى قدس الاقداس وظللت تقرأ الفلسفة والاخلاق لرياضة العقل أو للذة المعرفة او لشهوة الجدل ، ثم رميت الناس من عليا سمالك بالاراء المتعارضة والاحكام المتناقضة لنضطرع في المطابع حيناً ثم تموت في الكتب .

لا يزال المربون يا سيدي يجادلون في أغراض التربية ويجربون نظرياتهم المختلفة في حقوقهم الخاصة . فليت شعري وشعرك أيتاح لهؤلاء في دهر من الدهور ان يقبضوا على أعنة الامم ويتولوا القيادة في ركب الحياة ؟! ادع لله للناس أن يلهمهم من الحق ما ألهمك ، وأن يعلمهم من قواعد الخير ما علمك !

★ ★

قال صاحبي الثائر خالد وقد شاب وجهه بشيء من الايمان والاطمئنان وهل نستطيع ان نعد كثيراً من الناس على غرار هذا الرجل ؟ فقلت له يا صاحبي ! ليست المسألة مسألة احصاء وعد ، انما هي مسألة امكان وواقع ومتى ثبت ان الاخلاق الفاضلة استطاعت ان تصنع من هذا الرجل المثال فلم لا تستطيع ان تصنع على غرارهِ ملايين من الرجال ؟

كلكم حواريون فمن يهوذا؟

لا تسمع من أي انسان في أي مكان الا تذمرا على حال المجتمع ، وتضجرا من نظام العيش ، وتضجروا من فساد الحكم ، وتحسرا على أخلاق الناس ! فما من سياسي تلقاه الا رأيته لهيف الجوانح ذاهب القلب ، لا يملك عينه من الدمع ، ولا قلبه من الوجد ، ولا لسانه من هذه الشكاة : اضاعوا استقلال البلاد ، ووادوا دستور الامة ، ونشروا بخلهم على الشعب سوء النبا ! فقد كان لنا بجانب (الاحتلال) مكان ومع (دار الاستشارة) ، أي ، وقبل نفاذ الامور كلمة ، وفوق كل اعتبار كرامة . وكان لهذا كله على ضآلته وهزاله ثمن فادح مرهق ، أديناه ضحايا برة من أرواح الشباب في ساحة الجهاد ، وملايين تسعة من اقوات الامة .



وما من موظف تراه الا حدثك والهم يعتلج في صدره ، والاسى يتلظى على وجهه : وكيف تحكمت المحاباة في دوائر الحكم ، وفشا التواكل في دواوين الحكومة ! « فالشهادة العالية » في التعيين زور مع التوصية ، والكفاية البارعة في الترقية خرق مع الهوى ، وحسن العمل في سبيل انحطوة جنائية مع سوء الحظ ثم ترى « الاقلام » غاصة بالكتب ، والمكاتب مكتظة بالملفات ، والوزارات مزدحمة بالسائلين والمستعجلين ، والاوراق الحائرة تنتقل من يد الى يد ، وتخرج من مكتب الى مكتب ، وترحل من بلد الى بلد ، لان « التواكل » الماهر قضى على كل كاتب أو حاسب ان يزيج همها عن نفسه ، ويخرج حكمها من اختصاصه ، فتلبث على هذه الحال بين الحل والترحال شهورا وسنين وهي مع الجد لا تستغرق تفكير لحظة وعمل ساعة !

يقول كل موظف هذا الكلام ، ويتهم هذا الاتهام ، حتى أولئك
انطفيليون الذين عينوا لقبض المرتب ، وظلوا من غير عمل ولا مكتب !

★ ★

وما من أديب تخلو اليه الا نثر عليك دموع الخنساء ، ونظم في
مسمعك تشاؤم أبي العلاء ، وسألك وهو متبلد من الحيرة ، متلدد من
الدهشة ، متى كان البذاء من الادب ، والهجاء من النقد ، والادعاء من
الفن ، والتقليد البهيم من العبقرية ، والكيد اللثيم من الصحافة ؟

كان الادب سبيلا بين الله والنفس ، وسلاما بين الروح والجسم
ولسانا بين الجمال والحس ، ودليلا بين الهوى والخير ، ونسبا بين القراة
والبعد ، فأصبح كما ترى سببا من أسباب العداوة ، وسبيلا من سبل
الفرقة ، وبوقا من أبواق الفتنة ، ومظهرا من مظاهر الجهالة .

يقول كل أديب هذا الكلام ، ويلقي عليك هذا الاستفهام ، حتى
أولئك السفهاء الذين يلبسون ظلما مسوح الادب ، ثم يلتمسون الظهور
بالوقية في كل من كتب !

★ ★

وما من رجل من رجال الدين نجلس اليه الا قال لك ودموع
الحسين (١) تنهل على رده العريض انهلال المطر : لم يبق للدين في هذه
الدنيا سلطان ، ولا للخلق في هذه الفوضى مكان ، ولا للفضيلة في هذه
المادية قيمة . ولقد استشرى فساد العصر حتى نال من تقوى العلماء
فأصبحوا يأنفون من الورع ، وينفرون من البساطة ويتأبهون على العامة
ويمدون أعينهم الى شهوة الحياة ، ويذهبون انفسهم على فتنة الحكم ،
ويتخلون عن الدعوة الى سبيل الله الى الدعوة الى أهواء الفرد !

يقول كل عالم هذا الكلام ، ويتهم هذا الاهتمام ؛ حتى أولئك
الضعفاء الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وجعلوا من نفوسهم الى

(١) الحسن البصري والحسن بن سيرين .



وما من تاجر تعامله ، أو صانع تقاوله ، الا ابتدرك بالزراية على الذين نفقوا على الغش ، وأثروا على الخداع ، وسلبوا ثقة الشعب باسم الاخوة ، وسرقوا مال الجمهور باسم الوطن ، حتى جعلوا التجارة والصناعة فيما بينهم وبين الناس معنى من معاني النهب ، وحيلة من حيل الشطارة • فأنت تدخل المتجر أو المصنع وفي حسك لا محالة أنك مغبون في السعر ، أو مخدوع في النوع ، أو مظلوم في التقدير !

يقول ذلك كل تاجر وكل صانع حتى اولئك الذين قضي عليهم موت الضمير ان يصدقوك في البيع ويكذبوك في التسليم ، ويعاهدوك على نوع فيغيرونه ولا يزيد رجعهم من غشه على ملهم !



وهكذا تسمع هذا السخط الحاقد والنقد اللاذع والتعريض المضى والزراية الساخرة من كل لسان في أي طبقة ، وفي كل حديث في أي مجلس ، فتقف موقف المشدوه بين العجب والغضب وتساءل :

إذا كنتم يا قوم جميعا حواريين ، فمن يهوذا الذي خان الوطن بدوانقه الثلاثين (١) ؟ كلكم يلوم فمن الملووم ؟ وكلكم يتهم فمن المجرم ؟

وعظ مالك بن دينار عظة تقاترت عليها دموع أصحابه ، ثم افتقد مصحفه فلم يجده ! فنظر اليهم وكلهم من أثر كلامه لا يملك دمه وقال :
ويحكم ! كلكم يبكي ، فمن سرق المصحف ؟

(١) ذلك هو مقدار المبلغ الذي اخذه يهوذا الاسخريوطي ليخون السيد

الأدب الصادق

الأدب عبير الروح وشعاع النفس ونضج العواطف ، يتأثر حتما بما ينال أولئك من تطور الحياة وتغير الناس وتقلب الزمن • فهو يطيب أو يخبث ، ويضطرم أو يخبو ، ويمر أو يحلو ، تبعاً لما يعرض للروح والنفس والعاطفة من احوال الضعف أو القوة ، والفساد أو الصلاح ، والانحطاط أو السمو •

فالادب العربي كان صادقا حين فاض بالبطولة وزخر بالحماسة وجاش بالعزة في عهوده الأولى ، أيام كان يمدد العرب من قوتهم بالروح ومن سلطانهم بالنبل ، ومن حريتهم بالكرامة •

والادب العربي كان صادقا حين لج في الضراعة ، وضج بالشكوى^١ وأن من الالم ، وتحدث عن فسوق الخلق المنحل ، وإيمان القلب المستذل وضلال النفس المريضة في مذاهب القحة ، في عهوده الأخيرة أيام وهنت عزائم الملوك ، ووهت دعائم الملك ، وتخلت يد العرب عن زمام الدنيا ، فوقعت الفوضى وحدث الخلل ، ولجأ الناس بعضهم الى الله وراء شيوخ الطرق ، وبعضهم الى الشيطان وراء قطاع الطريق !

والادب العربي صادق اليوم في الابانة عن هذا الشك المخامر في قدرتنا على التفكير الاصيل ، واضطلاعنا بالامر الجليل ، واستقلالنا بتبعات الرأي وتكاليف الحياة ؛ فان اعتقادنا الايحائي الزمن بتفوق الإوربي وامتيازه سلب من نفوسنا الثقة ، ومن قلوبنا الايمان ، ومن شعورنا النسمو ، وتركنا كالعبد المملوك لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه ، ينقل فيما يقول عن لسانه ، ويصدر فيما يعتقد عن قلبه •

فأدينا يجهل اللغة العربية كل الجهل ، ويعلم اللغة كل العلم ، لانه اذا تكلم بها أو كتب فيها شعر بذلك الامتياز الذي يلزم أهلها في بلاد الشرق ، وأدينا يقرأ الادب الاجنبي ويفعل الادب العربي ، لان هذا أدب قوم كانوا يلبسون العمام ويأكلون بالأيدي ويجلسون على الوسائد ويقولون له : نحن أجدادك ! وذلك ادب قوم يلبسون البرانيط ويأكلون بالشوك ويجلسون على الكرسي ويقولون له : نحن أسياذك ! وأدينا يعمر عن مناظر بلده ومحاسن طبيعته ومفاخر قومه ومآثر شرقه ، ثم يفتح عينيه بكلمات يديه ليستشف من خلال السطور السود قناطر (السين) وشعاف (الالب) وخمائل (التيرول) لان هذه ذكرها جيته ولا مرتين ويرون ، وتلك انما ذكرها البخري والرضي وشوقي !

زارني ذات يوم شاعر من شعراء الشباب وفي يده قصيدة يريد نشرها بالرسالة ، وكان موضوع القصيدة كما يقول : تصوير منظر قروي في ريف مصر : مشرق الشمس في القرية أو مغربها لا أذكر . فلما نظرت الى الصورة - وأنا قروي - أنكرت ما رسم فيها من الخطوط ووضع بها من الالوان وحشد اليها من الطبيعة . فقلت له : يغلب على شعوري انك ترجمت . فقال وهو يعتقد من التيه عنقه : ثق انها من وحي خاطري وفيض لساني ، فقلت له : اذن ما هذه النواقيس التي ترن في الابراج ؟ أي قريتك كنيسة ؟ فقال : كلا ، وانما آثرت رنين الناقوس على أذان المؤذن ، لاني أجد للاجراس والابراج من الروعة والشاعرية ما لا أجده للمأذنة والمسجد . فألطفت للفتى في الاعتراض والاعذار مخافة ان يرميني في سره بالجمود والتأخر !

كذلك قدم اليّ كاتب من ناشئة الكتاب قصة مصرية سمى اشخاصها : جان وألبير ولورا وهيلين ، لانه يجد هذه الاسماء في الحوار أرق وأعذب من علي واسماعيل وسعاد وفاطمة !

فالادب العربي الحديث كالمجتمع العربي الحديث ، يقوم على موت الشخصية وفناء الذات ونسيان التاريخ ونكران الاصل . فهو يستلهم المطابع الاوربية ، ويخضع قريحته للقرائح الاوربية ، ويعقد لسانه باللسن

المرهوبة منها فيحكى ما تقول في لعنة نكراء من أثر العقدة ، وهو لو وضع
عن كاهله نير الامتياز ، وفهم هذه الكلمة المخزية على المجاز ، فأخذ عن
طبعه وترجم عن طبيعته ، لفجىء الغرب بأدب قدسي الالهام سحري الانعام
شرقي الروح عربي الطابع ، يحل أهله من أدب العالم ما أحل أدب الهند
اقبالا وطاقورا !

ان الطبيعة المصرية اولى ان تلهم الشاعر تأمل الصحراء ، واحلام
النخيل ، وابتسام الصحو ، لا ان تلهمه ما تلهم الطبيعة الانجليزية من أمثال
(الملاح التائه) و (الزورق الحالم) و (وراء الغمام) ^(١) فان الفن لا يخضع
خضوع العلم للعقل المشترك والوطن العام ، وانما يخضع قبل كل شيء
لطبائع الاقليم وخصائص البيئة ومنازع الشخص ، فاذا استنزل شعراؤنا
الشباب على خواطرهم هذا الوحي الغريب ، فذلك أثر ما تشكوه من هذه
العبودية العقلية التي ضربت على الاذان وغلبت على الالذهان وجعلتنا
للاجانب في كل شيء تبعاء .

فمتى يعلم العربي ان له مجدا يجب ان يعود ، ووطنا ينبغي ان يسود ،
وصوتا يحق ان يسمع ، وأدبا يصح ان يحتذى ، وتاريخا يليق ان ينشر ،
وحقا على أرضه تؤيده الطبيعة ويقره القانون ولا ينكره عليه الا جنبه
وذله !؟

(١) هذه عناوين دواوين الشعراء الشباب .

ثُمَّ لَسَاعَةً^(١)

في الشرفة الوسيعة من فندق (كارلتون) ، جلست اطالع في صفحة دجلة ما خطته يد القرون . وكانت شمس الاصيل تنقض تبرها على أمواج النهر وسطوح الكرخ وحواشي الافق ، والطبيعة الانيقة تنعم بالصفاء والبهاء والدفء ، بعدما اجهدتها رعد الامس وبرقه ، وأغصها وابل الغمام وودقة ، فالسماء مصرية الاديم ، والجو عبهري النسيم^(٢) ، والافق الغربي مزدان بقزعات^(٣) من السحاب الالبيض الرقيق ، والماء قد استحال لجينه نضارا من طول ما حمل اليه السيل من كنوز الجبل^(٤) .

اخذت أصوب النظر وأصعده في النهر والجسر والشاطيء . فأرى أنماطا من الناس ، وأخلاطا من الاجناس ، وصورا من الاشياء ، تنكرها العين ويعرفها القلب ، لانها شرقية ، ولانها عربية ، ولانها مظلومة !

ذكرتني هذه المناظر غابت في سويداء القلب ولغائفه : ذكرني تقابل الرصافة والكرخ على دجلة ، تقابل القاهرة والجيزة على النيل الاعلى ، وتقابل المنصورة وطلخا على النيل الاسفل . وفي هذه الاماكن الحبيبة كان مدرج طفولتي وشبابي ، وملتقى أحبتي وصحابي فهاجت شجوني وسالت شؤوني^(٥) ، فوضعت جبهتي المضطربة على سياج الشرفة البارد وعدت بالذاكرة وشيككا الى بغداد . ثم انطويت على نفسي وأخذت أتفكر وأتذكر وأعمه في غيابة الماضي حتى انقطع ما بيني وبين الحاضر ، وانمحي من حولي العالم بأسره .

(١) (كتبت في ٢٦ شباط سنة ١٩٢٩ على اثر قدومي الى بغداد)

(٢) العبهر : الياسمين .

(٣) القزعة : قطع من السحاب متفرقة صفار .

(٤) المراد بها : الغرين .

(٥) الشؤون الدامع .

دار الوظيفة

قال وهو يقلب كفيه من الهم ويعض على يديه من الغضب :

سقط الوزير سقوط الورقة الجافة قل ان يمضي القرار بالوظيفة •
فهل رأيت مثل هذا الحظ المتخلف والقدر العاث ٠٠؟

فقلت له : هون عليك يا بني ولا تسلط على نفسك أساك • ان معك الشباب القادر ، والامل الطموح ، والثروة المساعدة ، ودبلوم الزراعة التي تفتح لك كنوز الارض ، وتدر عليك أخلاف السماء ، وفي القرية متسع لامثالك ممن يحيون مواتها ، ويجددون حياتها ، ويفيضون على أهلها نعمة العلم وخير المدنية ونعيم الحضارة • فلم لا تستأجر مزرعة في بعض دوائر الامراء تجرب في استغلالها كفايتك وارادتك وحظك ؟ انك ان فعلت عصمت نفسك من رق الوظيفة ، وخلقك من فتنة الحكومة ، وعلمك من آلية العمل ، ورزقك من تحديده بالمرتب ، وقدرك من قياسه بالدرجة •

فأجاب وفي عينيه سهوم العجب من هذا الرأي : مالي أدفع بنفسني في هذه المغامرة المجهولة ، والوظيفة تضمن حاضري بالمرتب ، وتؤمن مستقبلي بالمعاش ؟ والقليل المتصل خير من الكثير المتقطع ، والموضع المتضامن المتماسك أصلح للقرار من الرفيع المترجح ؟!

فقلت له : ذلك كلام لاكتبه اللسن حتى تفه ، وتقبلته الاذان حتى سمع ولقد كان له مساعة وبلاغة يوم كانت المدارس لتخريج الكتبة والحسبة للحكومة ، فأما اليوم وقد امتد أفق التعليم ، واتسع نطاق المنهج ، وانفسح مجال العمل ، وتحققت الحرية للفرد ، وتيسر الارتحال للشباب ، وحان الحين ليسترد المصريون جماعات ووحدانا مرافق بلادهم وموارد

أرزاقهم من الاجانب ، فان الاخلاذ الى المقاعد الحكومية اخلاذ الى المعجز
واطمنان الى الهون وانخزال عن تحرير الوطن .

قال : ولكن فريقا من الشباب ارتجلوا بعض الاماني الاقتصادية
الجماعية في الزراعة والتجارة والملاهي ، فوردوا عن خسارة وصدروا عن
فشل .

فقلت ان هؤلاء فاروا عن حرارة وقتية ؛ وثاروا عن ربح عابرة ،
فاعتسفوا الامر قبل ان يخبروه ، وزاولوه دون ان يفرغوا له ، وأخطأوا
تقدير المنافسة الاجنبية فأخطأهم التوفيق . ومالك تقيس امرك بهذا المقياس
المختل وامامك المقاييس العليا تتوالب الى عينيك من كل مكان ! ألم تر
الى اليوناني أو الطلياني كيف يفد عليك من غير رأس مال ولا شهادة
جامعة ولا توصية وزير ولا تعضيد جمهور ولا تحميس صحافة ، فيحترف
وضائع الحرف ، ويحتمل مكاره الفوز ، ويتفرع معالي الامور في روية
وصبر ، حتى بلغ به نشاطه أن يدير عمارة المدينة ، ويصرف تجارة القرية ،
وينتج زراعة العزبة ، فيبيع عليك غلة أرضك ، ويتعبدك بربا مالك ، وأنت
جالس جلسة الاجير على مكتبك الحقير في دار الحكومة تكنس لنعليه
الطرق ، وتشق لعينيهِ الحداثق ، وتكفل لمتاجره الامن ، وتدبر لمزارعه الماء ،
وتتقبل على كل ذلك دغل الصدر وقسوة اللسان وقحة النظر !

★ ★

رأى صديقي الفتى ان لهجتي لا تلائم همه الغالب ، وان منطقي لا
يساير منطقة اليأس ، فتولى عني غير راض ولا مقتنع ، وتركني أحدث
نفسي ، وأقارن بين يومي وامسي ، فاجدني بين عملي المقيد الذي انصرف
اليه ، أشبه بالسجين المغلول يعمل برأي غيره ولحساب غيره . يتحرك ولا
يسكن ويسير ولا يقف الا في نظام . وهو يأكل حين لا يشتهي ، وينام حين
لا يريد ، ويستيقظ حين لا يجب ، وتتعطل ملكاته حتى يصبح كالانسان
الصناعي : قوة محركة وآلة . ثم يدرك السجين لطف الله فتتفكك عنه
السلاسل ، وتفتح له الابواب ، فيجد عقله في النور ، وخلق في الطبيعة ،

وحرته في الجو ، ووجوده في المجتمع ! فنبت الريش الناسل ، ويخفق
الجناح المهيض ، وتكشف الآفاق الجديدة !

★ ★

ان اولى الناس بالرثاء لاولئك الذين سلبوا جوهره الحياة وحرية
العيش ، وعاشوا في ظلام الوجود مكبين على مكاتبهم ، مغلولين عن الحركة
مكمومين عن الشكوى ، يستقطرون الرزق من شق القلم ولا يصيرون من
اجورهم سدادا من عوز ولا غنى من فاقة •

يدخل الموظف الديوان وهو ابن عشرين ، فيودع عاما ويستقبل
عاما حتى يأخذ بمخنق الستين وكأن لم يحدث في العالم شيء ! يختلف الليل
والنهار ، وتبديل الاحوال والاطوار ، وهو على مكتبه الضيق في غرفته
المظلمة ، يعمل ساعة ويجتر أخرى ، دون ان يشعر بدوران الفلك ؛ ولا ان
يفطن الى حركات العالم ! يدخل الديوان وهو طرير الشارب ، أثيث الجمة .
ريان من الشباب والقوة والامل ، ثم يودعه وهو مخدد الوجه ، أشيب
الشعر ، متداعي الجسم ، فقير من المنى والذكريات والمال ، لا يصلح الا
ان يكون عمودا في مسجد او منضدة في قهوة • وربما أقصدته (١) المنون
لاقطاعه بغثة عما ألف من عادة شديدة وحياة رتيبة وأعمال واحدة ، في
ساعات لا تختلف ولا تبدل •

★ ★

أيها الموظفون ! ان لابتغاء الرزق موارد غير هذا المورد الناضب ،
وان لخدمة الامة مواقف غير هذا الموقف الكاذب • فتجافوا بانفسكم عن
هذه المقاعد ، فانها مواطن الذل والملق ، ومساكن الفقر والجهل ، ومكامن
الخمول والموت • وقرأوا على ابوابها ما كتبه « داتتي » على احد ابواب
الجحيم :

« قوضوا حصون آمالكم ، واضمروا اليأس من مآلكم ، أيها
الداخلون ! »

(١) أقصدته المنون : رمته فلا تخطئه •

ذكرى المولد

في مثل هذا الاسبوع من مثل هذا الشهر لسنة ثلاث وخمسين قبل
الهجرة أعلن الله كلمته من جديد ، في استهلال هذا العربي الوليد •

وكانت قافلة الحياة يومئذ جائرة ^(١) السبيل حائرة الدليل خائرة
العزيمة ، والعالم الانساني يكابد في هيكله المنحل عوامل البلى من وثنية
توبق ^(٢) الروح ، وجاهلية توثق العقل ، ومادية ترهق الجسد • وكانت
الولاية على الدنيا في ذلك الحين لاعقاب من الروم شفهم ^(٣) الفسوق
والترف ، وأخلاف من الفرس هدهم الغلول ^(٤) والطمع ، والناس عدا هؤلاء
واولئك اوزاع وهمج • اللهم الا شعبا نبيل الفطرة اعتصم بالصحراء من
هذا الفساد الشامل ، فما عبث بضميره سلطان ، ولا عدا على خلقه طاغية • • •
نشأته الطبيعة على سجاياها المرسله ، وراضته على نظمها المحتومة ، وصفاه
« الانتخاب الطبيعي » بالغزو المتلاحق والدفاع المتصل ، فأوى بضعيفه
وأبقى على قويه ، حتى لم يدم على أديم الجزيرة الا سيف صارم وفرس
جواد ودارع بطل ! ثم تنخل من هذه الصفوة الباقية في القرن السادس أمة
وسطا تجمل المثل الاعلى للانسان الاعلى (سوبرمان) في قوة الحيوية وكمال
الرجولة وصفاء الحس •

تلك هي الامة العربية التي اختارها الله لقيادة شعوبه الحائرة، واختار
منها محمدا لتبليغ رسالته الاخيرة •

بين ايوان كسرى، وبلاط القيصر اهتز مهد العربي اليتيم في ارض
مكة ! فتصدع لهزته الايوان، وتطامن لهيبته القصر! وكأنا هتف بالعاقلين

(١) الجائر : المائل عن القصد

(٢) توبق : تهلك

(٣) شفهم : هزله واوهنه

(٤) الغلول : الخيانة

العظيمين من جانب الغيب هاتف : « اليوم ينتهي تاريخ وابتداء تاريخ !
ليس بعد اليوم كاهن ولا سيد ! انما العبادة لله ، والقيادة للرسول ،
والسيادة للدين ، والحكومة للعرب ، والدنيا للجميع ! »

★ ★

وبين عرش القيصر وعرش كسرى انتصب منصب منبر النبي الكريم
في سماء المدينة . فتضاءل لجلاله عرش وتقوض لدعائه عرش ! ثم انبثق
نوره القدسي في مجاهل البدو ومعالم الحضر ، كما يتسم الامل في قطوب
اليأس ، وتومض المنارة في ظلام المحيط .

هنالك ظهرت الوجدانية على الوثنية ، والغيرية على الانانية ،
والانسانية على العصبية ، والاسلامية على الجاهلية . ثم عرف الانسان قدر
الانسان ، وأدركت النفوس جمال الاحسان ، ووجدت قافلة الحياة طريقها
القاصد (١) .

كان العالم يقاسي حين ولد محمد بن عبدالله تفكك الخلق ، وتحلل
الرجولة وضياح المثل الاعلى ، فكان أكمل ما في حياة (الامين) هذه الصفات
النوادر : خلق عظيم شهد به الله ، ورجولة كاملة خضع لها الناس ، ودين
يجمع الى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة . ورسالات الرسل انما تعالج
بظهورها الفساد الذي استشرى في العالم ، والداء الذي استفحل في الناس .
فاذا كانت معجزة الرسول في القرآن فان مجده في الخلق وفوزه بالرجولة .
والشعوب المختلفة التي صهرتها شخصية العرب وطبعها ثقافة العرب ، لم
تصل الى الاخاء والوحدة الا على منهاجه وهديه !

★ ★

ظهر رسول الله والعرب أشتات من غير جامع ، وهمل من غير رابط ،
واحياء من غير غرض . فاضت في نفوسهم الحياة ، وزخرت في صدورهم
القوة ، فصرفوا هذا النشاط العجيب الى نزاع لا ينقطع وصراع لا يفتر .
فحمل اليهم وحده رسالة الله لا يسنده سلطان ، ولا يؤيده جيش ، ولا

(١) الطريق القاصد : المستوى وهو خلاف الجائر .

يمهد له مال ، فنفروا منها نفور الوحش المروع !
ثم رأوا فيها سيادة لاسرة ، وخضوعا لقانون ، وخروجا على عرف ،
فقابلوها بالعناد ، وعارضوها بالحجاج ، ودافعوها بالكيد . آذوا الرسول
في أهله وفي صحبه وفي نفسه فما وهن عزمه ولا لانت قناته ، وانما قابل
الاذى بالصبر ، والسفه بالحلم ، والفظاظة بالركة ، وهذا هو الخلق .

ثم قارع الجدال بالتحدي والمكابرة بالسيف ، وهذه هي الرجولة
وبذلك الخلق وهذه الرجولة انتصر محمد وحده على العرب ! وبذلك
الخلق وبهذه الرجولة انتصر العرب بعده على العالم !

★ ★

فلينظر اليوم شعب محمد وأتباع محمد ماذا في نفوسهم من دينه ،
وماذا في أخلاقهم من خلقه ، وماذا في أيديهم من تراثه ؟ فان وجدوا ان
دينهم اصبح رسما محيلا في نفوس الخاصة ، وأثرا مشوها ضئيلا في نفوس
العامة ، وان اخلاقهم فقدوها يوم فقدوا الحرية ، واضاعوها يوم أضاعوا
الملك ، وان تراثهم أصبح نهبا مقسما بين شذاذ الشعوب وذؤبان الامم ،
فليفيقوا من النوم . وليخففوا عن القدر اللوم ، فان الله لا يظلم الناس
مثقال ذرة . ومن عاند طبيعة الحياة فقتل في نفسه الطموح ، وفي فكره
التجدد وفي عمله الابتكار ، ورضي ان يكون في الدنيا كالاثر في المتحف
يدل على ملك باد وشعب اقترض ، كان يسيرا عليه أن يدع دينه للمبشرين
وطنه للمستعمرين ، ثم يقعد مقعد الخوائف يتحسر على المجد المفقود ،
ويتعلل بالاماني الكواذب !!

ان ذكرى مولد الرسول ذكرى انطلاق الانسانية من أسر الاوهام
وطغيان لحكام وسلطان القوة وتحكم الجهالة فما اجدر النفوس الذاكرة
الحررة على اختلاف منازعها ان تخشع اجلالا لذكرى رسول التوحيد
والوحدة ، ونبي الحرية والديموقراطية ، وداعية السلام والوئام والمحبة !!
وما اخلق الزعماء الذين يحاولون اليوم توحيد العرب من جديد ، أن
يتخذوا منهاجه سبيلا الى هذا العمل المجيد !!...!!

(اول كانون الاول سنة ١٩٣٣)

أعيادنا

في ذات مساء اشتد به الصراع بين بواكر الربيع وأواخر الشتاء ارتفع من بين ضجيج القاهرة ولغظ النهار الراحل طلقات ضعيفة من مدفع عتيق ... وتألفت في شرفات المآذن الشم مصابيح الكهرباء بغتة فعلم الناس بمقتضى التقاليد ، ان غدا هو يوم العيد !...!

راح قوم يقضون ليلهم بين وحشة القبور ورهبة الموت في غير اذكار ولا اعتبار ولا خشية ! وبات آخرون يتعهدون كباش الاضاحي بالعلف ، ويشحذون لصباحها الاحمر السكاكين والسواطير • وأصبحت القاهرة دامية البيوت حامية المطابخ شديدة العجبة ، وبيوت الله التي نزل فيها العيد من السماء ، تنتظر المؤمنين للصلاة والدعاء فلم يغشها الا فئات من العمال والبوايين والخدم !

أما السراة والايواسط فقد خرجوا في هندام الامس واهتمام اليوم ، يستقبلون العيد في القهوات والحانات ، بين لعبة النرد الصاخبة ، وأحاديث الدواوين المعادة ! فاذا تلاقى في الطريق صديقان ، أو تراءى في القهوة قريبان ، تبادلوا بفتور تجية العيد ومضى كل منهما لشأنه •



وذلك هو العيد أو ما يقاربه في مصر وفي سائر البلاد العربية • فلولا مرح طافر يقوم به الاطفال في هذا اليوم لعطلة المدارس وجدة الملابس وسحر النقود وفتنة اللعب لم كسائر الايام حائل اللون تافه الطعم بادي الكتابة !

فليت شعري ماذا حاق بنا من الاحداث والغير حتى غاصت ينابيع المسرة في القلوب ، وماتت أحاسيس البهجة في النفوس ، وتحللت أواصر

المودة بين الناس ، وآل أمر العيدين – وهما كل ما بقي في ايدينا من مظاهر الوحدة الدينية والعزة القومية – الى هذه الصورة الطامسة والحال البائسة !؟

لا نستطيع ان نتهم حسرة الحزن على الماضي وذلة الضعف في الحاضر، فان أعياد اليهود وان فقدت بذلك مظهرها الاجتماعي ، لم تفقد روعة الدين في الكنيس ولا متعة الانس في البيت ولا جمال الذكرى في الخاطر . وأعياد اخواننا في الوطن والجنس والمجد والاسى من نصارى الشرق لا يعوزها الرواء ولا الاخاء ولا اللذة .

كذلك لا نستطيع ان نتهم المادية والمدنية ، فانهما – وان جنتا على بعض الاخلاق الكريمة كالاخاء والاخلاص والمروءة والرحمة – لم تجنيا على نزعات السرور في النفوس ، ولم تقضيا على غرائز اللهو في الطباع ، بل ازداد الناس بهما في ذلك شراسة وحدة .

والاعیاد الاجنبية التي تشهدنا مصر في ذكرى عيد الميلاد ورأس انسنة غاية في نعيم الروح والجسم ، وآية في سلامة الذوق والطبع وفرصة ترى فيها القاهرة – وهي متفرجة – كيف تفيض الكنائس بالجلال ، وتزخر الفنادق بالجمال ، وتشرق المنازل بالانس ، وتسمي الشوارع وبيوت التجارة ودور اللهو مسرحا للحسن ومعرضا للفن ومهبطا للسرور ، وتصبح أعياد القلة القليلة مظهرا للفرح العام ، ومصدرا للابتهاج المشترك !

وهذه الاعیاد من وراء ذلك كله من أقوى العوامل في توثيق العلاقة بين الله والانسان بالدقات ، وبين الاصدقاء والاقارب بالهدايا ، وبين الكبار والصغار باللعب ، وبين الانسان والانسان بالمودة .

★ ★

اذن ما هي الاسباب الصحيحة التي مسخت حياتنا هذا المسخ وشوهت أعيادنا هذا التشويه ، فجعلت أظهر المظاهر فيها خروفا يذبح ولا يضحي ، ومدافع تساعد المآذن ولا تجاب ، وأياما كتنقاه المريض كل ما فيها همود

ونوم واكل ؟!

الحق ان لذلك اسبابا مختلفة ، ولكنها عند الرويه والتأمل ترجع الى سبب رئيسي واحد • هو غيبة المرأة عن المجتمع الاسلامي ... ذلك السبب هو علة ما نكابده من جفاء في الطبع وجفاف في العيش وجهومة في البيت وسامة في العمل وفوضى في الاجتماع ..

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة ، وهجرنا الاندية لغياب المرأة ، وسئمنا الملاهي لبعدها المرأة ، وأصبحنا كالسمك في الماء ، أو كالهباء في الهواء ، نحيا حياة الهيام والتشرد ، فلا نطمئن ، الى مجلس ولا نستأنس لحديث !

فاذا لم تصبح المرأة في البهو عطر المجلس ، وعلى الطعام زهر المائدة ، وفي الندى روح الحديث ، وفي الحفل مجمع الافئدة ، فهيات ان يكون لنا عيد صحيح ومجتمع مهذب وحياة طيبة وأسرة سعيدة !

تكاليف الاستقلال

وهل تكاليف الاستقلال الا ضرائب الدماء والاموال ؟

لقد كنا قبل ان نبلغ رشدنا الدولي نعيش في كنف الحكومة وحمى الاحتلال ، كما يعيش النشأ الاغرار في ظلال الابوين ورعاية الاسرة ! تنفق علينا الحكومة ولا نعلم من أين تكسب ، وتدفع عنا الحيف ولا ندري بماذا تضرب . وكنا نسمع بما تجود به الامم لاطوانها من الاموال والاتمار والانفس ، ونرى ما نحن فيه من البال الفارغ والعيش الابله ، فنحسب أن حياتنا هي الحياة وغبطتنا هي الغبطة . ولكننا كنا نرى من الجهات الاخرى أن عزتنا وقوتنا لا تقاس على عزات هذه الامم وقواها ، فهي في أوطانها حرة الارادة مطلقة السيادة ، وفي العالم مرفوعة الرأس مسموعة الكلمة ، ونحن في وطننا قطيع يسام ويسمن ، وفي العالم سلعة تساوم وتؤمن ، فلا نشعر هنا كما يشعر الناس هناك أننا نحن الوطن والثروة ، والحكومة والسطوة ، والدولة والسلطان . فلما بلغنا التكليف وأركنا الاستقلال وملكنا زمام الامر أصبحنا فاذا اخطار المجد تحوم على كل نفس ، واثقال الدفاع تحط على كل كاهل : فالضرائب تجبى من المال ، والكتائب تجمع من الدم ، والتضامن الدولي العام يقتضينا المساهمة في حفظ السلام وقرار العدل بالمعاهدات الدفاعية والمواثيق الاقتصادية . وفي سبيل ذلك تستعد كل نفس للموت ويتهيا كل شيء للبذل . ومن أجل ذلك يجب ان يكون صوتنا هو الارفع في السياسة ، ورأينا هو الاعلى في الحكم .

نحن الذين تنفق فلا بد ان يكون لنا الحساب . ونحن الذين نموت فيجب ان يكون في أيدينا الامر !

لقد كنا ندرك معنى الوطن ادراك الشيوع والابهام والغفلة . فلا نكاد ندري ما يقدم الينا وما تقدم اليه . فالترع تشق ، والطرق تنهج ، والجسور تنصب ، والعمارة تمتد ، والثقافة تنتشر ، والامن يستقر والحضارة تزدهر .

ونحن نستمتع بذلك كله استمتاع الغريب لا نجد فيه ربح الفخر ولا روح
المجد . كأن غيرنا هو الذي قام به وأتق عليه ! ولو أن عابثا عبث به ، أو
عائثا عبث فيه ، لما ألقينا بالنار الا لخبر السرقة او الخيانة . أو المحاباة نرويه
كما نروي أخبار البرق للتفريج والتفككة في حديث القهوة أو في سمر
البيت . وتلك حال كانت أشبه بحال الامير أو الغني الذي أوتي الملك عفوا
من غير حيلة . واستولى على ريعه صفوا من غير كلفة . فشعوره به شعور
بأثره لا بعينه ، وحرصه عليه حرص على ثمره لا على شجره . أما لذة الملك
في ذاته فلا يستشعرها الا المالك الذي اشتراه بجهد ، والفلاح الذي استغله
بعرقه .

كذلك كنا نفهم معنى الوطن قبل أن نفهم معاني الاستقلال والسيادة
والعزة . فلما فهمناها وفهمنا لوازمها من الاخلاص والايثار والتضحية .
أصبحنا نعتقد ان كل قوة هي من قوات الوطن العامة ، وكل ثروة هي من
ثرواته المشتركة . فالقادر لا ينبغي ان يعطل قوته لانه حر ، والغني لا
يجوز ان يبدد ثروته لانه مالك .

ان للوطن حقا معلوما في أملاك المواطن وملكاته . وان للمواطن حقا
مشاعا في أمجاد الوطن وخيراته . فأنا من حقي ان اقول للامير الذي يملك
ثروتنا وسمعتنا على الفتون والمجون . وللغني الذي يخمد نهضتنا وحيويتنا
بالكزازة واللؤم ، وللاديب الذي يزيف أدبنا وتاريخنا باللغو والباطل ،
وللوزير الذي يوزع المناصب بالهوى ويقسم الارزاق بالمحاباة ، ولل موظف
الذي يتصرف في أشياء الدولة تصرف المالك . فسيارتها في مرآبه وسعاتها
على بابه ، وأموالها في جيبه . وللعضو البرلماني الذي لا يدخل أحد
المجلسين الا ليقبض مكافأته او يلقي اصحابه او يتلقى بريده ، من حقي
وحقك ان تقول لهؤلاء جميعا على التوالي : انكم علق تعيشون على دماء
الناس ، وأنكاد تتلذذون بكفران النعم ، واقدام تتطفلون على موائد العلم ،
وأوغاد تدلسون الحكم على الوطن . ولصوص تعيث أيدىكم في مال الامة ،
وعيال تبهظ أثقالكم عاتق الفقير . فحياتكم على الارض غرور ولهو ،
ونسبتكم الى الوطن زور وباطل .

هل لأغنيائنا وطن

من أبناء البرق الاخيرة ان اللورد (نفيلد) صاحب مصانع سيارات (موريس) الانجليزية قد تبرع للدفاع الوطني البريطاني بمليون ونصف مليون من الجنيهات ، ووضع مصانعه الكبرى تحت تصرف وزارة الدفاع ، فبلغت بذلك جملة هباته للوطن في مدى عشر سنوات خمسة عشر مليونا ونصف مليون من الجنيهات على رواية الصنداي اكسبرس ! فاذا قرأت هذا وتذكرت ما تبرع به زخاروف وأفيروف وكوتسكا وأنطنيادس للجيش اليوناني وهم من رجال الاموال والاعمال في مصر لا يسعك الا أن تسأل كما أسأل : هل لأغنيائنا وطن ؟

الواقع الذي لا مرأ فيه ان ليس لأغنيائنا وطن ؟ انما لهم قصور لاتلاف النعمة ، ومزارع لعصر الفلاح ، وبرك لصيد البط ، وميادين لسباق الخيل ، وأندية لقتل الوقت ، ومنازة لاطهار الابهة . وما عدا ذلك من أرض الوطن ومعنى الوطن فهم لا يعرفونه ولا يفقهونه !

هل سمعت ان غنيا من الاغنياء أو أميرا من الامراء قال ان له وطناً فتبرع له بطائرة في الجيش ، أو بجائزة في المعارف ، أو بكرسي في الجامعة ، أو بمستشفى في الصحة ، أو بملجأ في الاوقاف ؟

لا تقل في تحليل هذه الفردية الشحيحة : ان اغنياءنا جهلاء العقل ، وامراءنا غرباء العاطفة ، فان الوطنية عصبية طبيعية تقتضيها سنة الحياة فتكون في رجل الفطرة تعصبا للأسرة ، وفي رجل البداوة تعصبا للقبيلة ، وفي رجل الحضارة تعصبا للامة ، وفي رجل الانسانية تعصبا للعالم .

ولئن سألتني عن تحليل ضعف الوطنية في هؤلاء الناس لاقولن لك اني

عنه عاجز ، فانهم لا يزالون يشعرون بها شعور الفطرة الضيقة المحدودة .
ومن الصعب على العقل ان يتصور ان اصحاب السمو واصحاب المجد
واصحاب السعادة لا يجدون في أنفسهم من الحب لمصر الحبيبة الخصيبة ،
ما يجده الانسان الفطري للغاية السلبية والبادية الجديدة !

★ ★

يكاد النيل يعتقد ان اكثر الاجانب الذين يعيشون فيه ، هم خير له
من اكثر الاغنياء الذين يعيشون عليه ! لان أولئك يعاملونه معاملة الراعي
الذي يحلب ويرعى ، وهؤلاء يعاملونه معاملة العلق الذي يمتص ويهمل ،
فأينما رأى التجارة والعمارة والانتاج رأى ضيوفه ، وحيثما رأى الاسراف
والاتلاف والتبطل رأى أهله !

ليتني أدري ماذا يقول الفني الاصيل اذا فافره الاجنبي الدخيل أمام
قدس الوطن ؟ أيقول له : هذه رؤوس أموالى تنشئ الشركات وتقيم
المصانع وتنمي الثروة ؟ أم يقول له هذه (مشروعات) أعمال تفر الامن وتحيي
البلاد وتقتل البطالة ؟ أم يقول له : هذه ثمار افضالي تمزق الدفاع وتشجع
الابداع وتنشر الثقافة ؟ الله أعلم يومئذ أيهما يقول ذلك وغير ذلك ، وأيهما
يقف ناكس الرأس خاشع الطرف عي اللسان ، لا يجري على باله الا انماط
الثياب وسلائل الكلاب وفصائل الخيل وطرز السيارات وأندية القمار
وحسان هوليود !

يظهر ان التفدية والتضحية والخدمة العامة انما تكون اثرا لقوة
الروح وصحة الخلق ، فان اول من تطوع للجهاد شباب الامة ، وأول من
تبرع للدفاع رجال الدين . فالحيلة في اغنيائنا اذن هي حيلة الله . هو
وحده الذي يملك ان يحيل في النفوس عبادة المال عبادة للوطن ، ويجعل
في القلوب محبة النفس للناس ...

★ ★

يا أغنياءنا انما نريد ان نجبكم فساعدونا على خلق هذا الحب . ان
ديننا ينهانا ان ننفس عليكم نعمة الله ، وان وطننا يمنعنا ان نفضن عليكم

ياخوة الوطن ، ولكن العقيدة والوطنية اللتين تحببناكم إلينا . هما كذلك
اللتان تغضبنا عليكم ! لان الامة تريد أن تقوى وفي نفوسكم قوتها .
وتبغى ان تعزز وفي رؤوسكم نخوتها . وتحاول ان تدافع وفي ايديكم
ثروتها . فحرمتموها كل ذلك ووضعتوه في غير موضعه . وأضعتموه في
غير سبيله ، ثم مكنتهم للجهل والفقر والمرض أن تدهمها من كل جانب .
فقعد القوى لجهله عن السعي . وفتر العالم لفقره عن البحث . وعجز
الضعيف لمرضه عن الإنتاج .



يا أغنياءنا — والناس اجسعون يعرفون من أعني — لقد جربتم بذل
المال في اللهو . وقتل العسر في العبث . وفقد الصحة في المجون . فهل
كسبتم من وراء ذلك مجدا او وجدتم في عواقبه سعادة ؟ جربوا ولو مرة
واحدة على سبيل التسلية ان تسحوا دمة على خد حزين . أو تنفسوا
كآبة عن قلب بائس . أو تسهلوا طلب العلم لفقير . أو تمهدوا سبيل العمل
لمتعطل . أو تشاركوا ابناء الشعب في منفعة عامة . ثم انظروا بعد ذلك
كيف يشيع في صدوركم الرخاء . ويرتفع بقلوبكم الاخاء . وتنعم نفوسكم
في الحياتين بين عاجل المجد وآجل الخلود . ثم وازنوا بين متعة الجسم
ولذة الروح ، تجدوا ان الاولى تنقضي بالملل والعلل والجريمة . والاخرى
تدوم بدوام الروح في الارض وتخلد بخلودها في السماء .



يا أغنياءنا — والله هو الغنى الحميد — لقد بح الصوت وحفى القلم
وأنتم في نشوة البطر وغفوة النعيم لا تسمعون ولا تقرأون ! فهل تظنون
أننا بما نقول ونكتب نريد أن نخرجكم من متاعكم ، أو نحولكم عن
طباعكم ؟ لا يا ساداتنا ! ان ذلك عمل الله وحده ، أما عملنا فان نذكركم
كلما نسيتم ان لكم مواهب تهلونها وللوطن في استغلالها نصيب ، وان
لديكم اموالا تبذرونها ولله في ريعها حق . وأن نبهكم كلما غفلتم الى
ان هزل الحياة لا ينفع في جد الموت ، وان ملك الدنيا لا يغني عن ملك
الآخرة !

بين ناخب ونائب

بين غداة وعشية أمسى غنينا الطافح عضوا بالتزكية في مجلس النواب والفوز بالتزكية هنا معناه امتناع المنافس لا انقطاع النظر ، وخلو الميدان لا بطولة الفارس . ومع ذلك نصب البيك السراق ، وقدم الحلوى ، وتقبل التهنئات ، وسمع بأذنيه الطويلتين القصائد العور والخطب البتر في الاشادة بالكفاية العالية فيه ، والثقة الغالية به ، والخير المرجو منه . وللريف شعراء وخطباء كمصافير الحصاد : تقع في الجرن ولا تقع في الروض ، وترزق للجة ولا ترزق للزهرة ، وتكرر اغرودها الواحدة ولا تقصد بها معنى غير فرحها هي بسعة البيدر وضخامة العرمة !

ولكن اليك وحده هو الذي صدق هذه التفاعيل العروضية فانتفش انتفاش الديك . وراح يعد ويمني ، ويعدد ويمن ، ويفخر ويفيش ، ويزعم انه باجتهاده وجهاده سيجعل المجلس يسطر الارزاق ويطيل الاعمار ، ويضمن لكل ناخب في دائرته قصرا في الدنيا وقصرا في الجنة . كان الرجل يتنفخ والناس يجاملون بالاصفاء ، ويتجملون بالصبر ، الا صديقنا الشيخ منصورا فقد قال في شيء من حدة الصراحة وشدة الحجاج :

— ذلك يا بك كلام من لغة التحيات والمجاملات تردده الالسن بحكم العادة ولا تريد به شيئا . هو اشبه بقولي : (أهنتك بالفوز) وما كنت أريد انتخابك . أو قول اللص : (السلام عليك) وهو يريد انتهابك . ولو كانت الوعود البرلمانية في آخر الانتخاب ، والبرامج الوزارية في أول الدورة ، من الكلام الذي يقصد به معناه ، لما بقي في صحاري مصر شبر يشكو الظما . ولا في مساكن مصر فرد يشكو الجوع ! لقد قلت كثيرا ولم تفعلوا . فحاولوا هذه المرة أن تفعلوا ولا تقولوا !

— أنت يا شيخ منصور كالضرس المخالف في دولاب الساقية ! لا يجري كلامك مع الكلام ، ولا يقف رأيك مع الاراء ! ماذا تريد ان يفعل النائب اكثر من أن يمثل الامة : ويشرع القوانين : ويبحث الميزانية ، ويراقب الحكومة ؟

— ذلك هو المفروض يا بك ! أما الواقع فهو أن بعضكم متى دخل البرلمان لا يمثل الا نفسه ، ولا يقضي الا حاجته : ولا يراقب الا عدوه . ويصوت على القانون في قاعة المجلس بالاقرار . ثم يكون هو أول من يطلب حرقه في ديوان الحكومة بالوساطة !

ان ما يطلب من الحكومة والبرلمان في شؤوننا العامة لا يزيد كثيرا على ما يطلب من صاحب العزبة في شؤونه الخاصة : استصلاح الارض والانتفاع بكل ما فيها . ثم تدبير القوت والصحة والمعرفة لكل من يقوم عليها . ليس لنا مستعمرات تقتضي ادارتها النشاط والحكمة . ولا اسواق تجارية تتطلب مراقبتها الذكاء والخبرة . ولا سياسة خارجية تحتاج معالجتها الدهاء والقوة . ها هي ذي عشرون سنة مرت على مصر ولها استقلال وفيها برلمان ؛ فهل تستطيع ان تقول ان المصري الان . اصبح خيرا مما كان ؟ ان هذه العشرين سنة غيرت نظما وخلقت أمما وقلبت الدنيا كلها رأسا على عقب ، ولكنها مرت على النائمين في الكهف مرور الحلم المزعج . حرك الاجسام بعض الحركة ؛ وترك المشاعر ساكنة كل السكون .

— ما هذه الفلسفة يا شيخ منصور ؟ هل تستطيع ان تقول لي أنت متى تركوا الحكومة تستقر ؛ وخلوا البرلمان يعمل ؟ ان الدستور في الامة . كالمصباح في الصحراء ؛ لا ينشر ضوءه الا اذا تركته الرياح آمنة .

— لو تفلسفت يا بك كما أتفلسف لتبينت ان استقرار الحكومة واستمرار البرلمان لا يكونان مع سياسة الكلام ؛ فان سياسة الكلام هي سياسة الفراغ ؛ واذا شغلها شاغل فهو المراء والمكابرة والمهاترة والخصومة . وكلما علا صوت على صوت ؛ وظهرت دعاية على دعاية ؛ انقلبت الاوضاع ؛

وتغيرت المكاتب . وتبدلت المناصب ، وتعطلت المواهب ، وتقوض المبني ،
واتتكث المفتول . وتوقف السائر . أما سياسة العمل فتهمي ، لكل ذهن ما
يشغله ؛ ولكل يد ما تعمله . وإذا اشتغلت الأذهان وعملت الأيدي . عيت
اللسنة فلا تجادل . وائتلفت القلوب فلا تختلف ، وانقطع دابر القوالين فلا
تعود الحزبية تجارة ولا السياسة حرفة .

— ان الدلائل يا شيخ منصور تبشر بصلاح الحال . وما دام الامر
في يد أهله فانظر الى المستقبل نظر المتفائل الامل .

— لا تكنني الى المستقبل يا بك . ان من يضع يومه لا يجد غده .
ومن يفرط في عاجل الشهادة طمعا في آجل الغيب كان حقيقا الا يدرك
نيئا .

— وماذا تريد أن اصنع لك الان ؟

— أريد ان تنزل عن مكافأتك البرلمانية لدائرتك الانتخابية . انك
والحمد لله ضخيم الثراء رفيع العيش ، فلا أقول انك طلبت النيابة كما يطلب
الناس الوظيفة . وان اربعين جنيها في كل شهر تقسم على ثمانين قرى لا
تدع فيها أميا واحدا قبل انقضاء الدورة . ولا اعتقد انك تؤدي الى أمتك
في طول نيابتك عملا أرفع ولا أنفع من هذا العمل .

— ولكنك تطلب ما لا يطلبه أحد في أمة من الامم .

— وهل تجد في أمة من الامم فقراء في مثل فقرنا يعطون ، وأغنياء في
مثل غناكم يأخذون ؟ ان النيابة عندهم بذل وتكليف ، ولكنها عندنا ربح
وتشريف . وان اكثرهم ليسخو بالالاف في سبيل الدعاية لها والظفر بها
فهل يضيركم ان تنزلوا لنا عن العشرات فتحفظوا مهجا من التلف وعقولا
من الجهالة ؟

— كلامك يا شيخ منصور سديد ورأيك أسد . وأني اعدك الا
اعارض اذا قبل الآخرون .

— أي آخزين تريد يا بك ؟ ولم لا تسن أنت هذه السنة الحسنة
فيكون لك اجرها وأجر من عمل بها الى يوم يحل المجلس ؟
— يحل المجلس ؟ قل الى يوم تنتهي الدورة يا شيخ . فال الله ولا
فألك ؟ لقد شغلتنا بثرثرتك عن تحية الناس . ثم اشاح البك عن الشيخ
وأقبل على المهنيين يوزع عليهم تحياته الشريفة !

(١٦ آذار ١٩٤٢)

مشة في الشاب الصالح

عرفت منذ ايام فتى غريظ الشاب رقيق الاهداب وضيء الطلعة يتكلم فيشع عقله في معانيه ، ويشيع ذكاؤه في مراميه ، ويسيل شعوره على القاطنة ، وهو لا يتكلم الا عن العمل ، ولا يناقش الا في الواقع ، ولا يرمي الا الى غرض . طموح النفس فلا يحصر افقه بأس ، ولا يحد غايته مطلب . بعيد الهمة فلا يضلله شارد الخيال ولا يفره خادع الامل . رفيع الهوى فلا يشوب غرضه سوء ولا يفسد طموحه أثرة ، نبت في اكرم المنابت ، قابوه عميد أسرته وزعيم بلدته رباه في مهد النعيم .

شب ذكي الفؤاد الى درجة الحكمة ، مشبوب العزم الى حد المغامرة . يذهب بنفسه غالبا الى الاعتداد الواقع ، ويميل بحيائه احيانا الى الجرأة المؤدبة ، وينظر الى غاية الحياة — وهو لا يزال في بدايتها — نظر الكئيس المليب المجرب ، فيهاجم السياسيين من ناحية استحقاقهم بالخلق ، والموظفين من جهة استهانتهم بالواجب ، والفلاحين من حيث اعتمادهم في الانتاج على التقديم الرث ، وفي العلاج على القدر والمصادفة على انه امام ابيه — وهو قرة عينه — مثال البر ورمز الطاعة فلا ينقد له رأيا ، ولا يعصي له امرا ولا يخالف له نصيحة .

تخرج منذ اسبوع في كلية الزراعة ، وكان الثاني في ترتيب الناجحين . زارني منذ يومين فوجدته على غير عادته ، مشغول القلب منقبض الصدر مشترك خاطر ، لا اثر عليه لنشوة الفوز ولا للذة الراحة ولا لفرحة المنصب ، كأنما هو آخر الدبلوم او فقير متقدم من غير وسيلة !

— مالك ساهم الوجه مكروب النفس يا أحمد ؟ هنيئا لك الدبلوم

والاولية ! فقال والاسى يبين في صوته ولهجته : ليتني لم ائل هذا الدبلوم . ولم احز خطر هذا السبق ! فلقد كان في لذة المدايسة وشهوة المنافسة وترقب النجاح وانتظار الحرية رضا لنفسي الطامحة ، وكفاية لقلبي الرغيب . اما الان فالفراغ يثقل حتى يقتل نفسي ، والوقت يطول حتى يملك روحي ، والامل يضيق حتى يظلم حياتي ! اريد ان اعمل فيمنعني ابي ، لانه يضمن بصحتي على مخاطر الفلاحة ، وبراحتي على متاعب الفلاحين ، وبسعادتي على هموم المسؤولية .

— اذن ماذا يريد ابوك ؟

— يريد لي الوظيفة . والوظيفة سجن لنفسي الطليقة . وتعطيل للمكتي الموهوبة ، ومحو لمعارفي المكسوبة ، وقتل لامالي الناشئة ، وتوجيه لميولي الطبيعية الى الرض الذي لا احب ، والى القصد الذي لا اريد .

ان في مزارعنا الواسعة مجالا فسيحا لنشاطي ، ومرادا بعيدا لعلمي ، ومختبرا صالحا لتجاري ، ومغرسا كريما لامالي . فانا أؤثر ان اجمل عبء العمل عن والدي ، واستغل علمي وعملي في تحقيق مقاصدي ، فاحافظ بالاستقلال الذاتي على خلقي وحرיתי ، واساهم بالعمل المنتج في نفع امتي واساعد اسرتي .

ماذا تجدي عليّ الوظيفة ؟ عشرة جنيها في الشهر ؟ لقد كان ابي ينفق علي خمسة وعشرين وانا طالب ، فكم جنيها سينفقها علي وانا موظف ؟ اذن سينفق علي اضعاف مرتبي لخدم غيره وافارق بيته . واطل السنين انطوال موظفا وضعيع المكانة ، مسلوب الارادة ، محدود الرزق ، خامل الحياة !

★ ★

ان شهادتي في فن الزراعة وانما الفن مجده في استقلاله . وخيره في حريته . علي ان وظائف الحكومة — بعد ان زعزعوا ضمانها بالكيد — وروعوا امنها بالسياسة — اصبحت مطلبا لقصار الامل ومذهبا لصغار

النفوس ، وملجأ لضعاف الحيلة • فاما الذي يجد في نفسه شعور القدرة ،
وفي بيته رأس المال ، وفي ارضه مكان العمل ، ثم يتشوق الى قيد الوظيفة
وذل التبعية ، فلا ادري بم اعتذر له امام النبل والرجولة !

فقلت له وانا موزع النفس بين الاعجاب به والرتاء له والاشفاق عليه:
كلامك هذا يا بني عنوان عقلك وبرهان فضلك ودليل دعواك • وليت
شمري ما حجة ابيك الكريم امام هذا الخلق العظيم والمنطق الواضح !

مذهبي في الحياة

مذهبي في الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح . وبفضل هاتين الميزتين بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت . لم ابلغ الثراء الضخم ، ولا الجاه العريض ، ولكنني بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي والذكر الحسن . والسعادة الحق اقرب الى الرضا والسكينة منها الى المال والمنصب .

حرصت على ان يكون مذهبي مستقيما ، حتى كانت العقبة الضخمة تعترضني فأقف دونها طويلا ، افتتها بمعولي الصغير حصاة حصاة الى ان تذلل وتزول .

وحرصت على ان يكون مذهبي واضحا ، حتى كانت المشكلة الصعبة تعرض فيكون حلها يسيرا بشيء من النفاق وقليل من المصانعة ولكنني كنت انفر من ذلك كله واحاول ان اعالجه بالصدق والصبر والصراحة ، فتنحل بعد ان تترك في النفس من الاثر ما يتركه الجرح في الجسد من الندوب ، ولكن هذه الندوب ستظل على الزمن ماثرا للذة من لذات الروح تشيع فيها العزة والحرية والكرامة .

نهج لي هذا المذهب والزماني اياه طبع حر مسالم ، فأنا منذ حملت نصيبي من عبء الحياة احاول ان استقل في عملي عن ارادة الغير واستغني بقدرتي عن معونة الناس ، فلم اضع يدي ولا عنقي في اغلال الوظائف الحكومية ، ولم اصعد صعود العليق على اكتاف الطوال من ذوي السلطان وانما اضطربت في مجالي الحيوي طليقا من كل قيد الا قيد الخلق ، مستقلا عن كل عون الا عون الله . بذلك سلمت نفسي من رذائل الوظيفة ، فلا جبن ولا رياء ولا ملق ، وبرئت حياتي من نقائص التبعية فلا خضوع ولا

اغضاء ولا ذلة •

مذهبي ان ادع الخلق للخالق فلا انتقد ولا اعترض ، ولا امد عيني وراء الحجب ، ولا ارهف اذني خلف الجدر ، ولا ادس انفي بين الوجوه ، ولا ارحم بمنكبي من يمشي عن يميني او عن يساري ما دام الطريق مفتوحا امامي الى الوجه الذي اقصده • لذلك عشت لين الجانب سليم الصدر لا ادخل في جدل ، ولا اشارك في مراء ، ولا ألج في منافسة ، وكان من جدوى ذلك علي ان الله وقائي عذاب الحسد ، وكفاني شر العداوة ، وجعل ما بيني وبين الناس قائما على المجاملة والمساهلة والود • ومن مذهبي ان اسقط الماضي من حساب الحاضر فور انقطاعه ، فلا احزن على ما فاتني منه ، ولا آلم لما ساءني منه ، وتصيني الخسارة فلا اجزع ، انما اطرحها من ربح الصحة والنجاح والامن • ثم ادبر امري على اعتبار انها لم تكن ، وسوءني الصديق فلا ابتس ، انما احمل اساءته على حيوانيته ، وأثرته فاذا عاد الى الاحسان لا اعاتبه على ما كان ولا اذكره بما فعل ، وأي نفع ارتجيه من تكبير ما راق واشغال ما خمد ، اني لا اصادق الا من احب ، واللذة التي اجدتها في حب الانسان ، تموضني من الالم الذي اجدته في لؤم الحيوان •



وللايثار جانب عظيم من مذهبي في الحياة ، فأنا أؤثر صاحبي على نفسي في المجلس والحديث والهوى • وقد أؤثره احيانا بالمنفعة ، لان شعوري بأن ادخل السرور عليه ، او اجلب السعادة اليه اجمل في نفسي من شعوري بأن اتصدر في الجلوس او انفرد بالكلام او اتغلب في الارادة او اختص بالفائدة •

ومن مذهبي ان اكره الظهور وامقت الدعوى واجتنب الفضول • فأنا اعيش في عزلة واعمل في صمت وامشي في قصد • وهذه الخلال قد تعوق عن الوصول في عصر كهذا العصر ، اعماله مظاهر ، واقواله هتاف ، ورسائله اعلان ، وغاياته شهوة ، ولكن الذين يندفعون الى الامام بهذه

الدوافع لا يلبثون ان يفقدوا الاجنحة المصنوعة والمحركات المستعارة
فيقفوا حتى يفوتهم اولئك الذين يسرون هونا على اقدامهم الطبيعية ، او
على مراكبهم الخاصة من غير ان ينالهم خزي او يمسه لغوب ، ومن اجل
ذلك لم ادخل في حزب ولم اقف على منصة ولم اظهر في جريدة •

ومن مذهبي ، ان اجعل الجمال سبيلا الى الخير ، ودليلا على الحق ،
فأنا اتوخاه في اللباس ، والطعام والمسكن والاثاث كما اتوخاه في النفس
والفن والطبيعة •

والمذهب طريق تذهب فيه ، فاذا لم يكن له من الجمال شجر يحنو
على جوانبه بالظل ، وزهر ينسم على افيائه بالعطر وحاد يرفه على سالكيه
بالنغم كانت الحياة بأسا من غير نعيم ، وصحراء من غير واحة •

تحرير المرأة

نعم ، غني قاسم امين باصلاح المجتمع المصري في خلقه وعاداته ونظمه واقتصادياته ، وتربيته وتعليمه ، ولغته وادبه ، ولكنه رأى ان علة العلل في فسادها هي حال المرأة . والمرأة قوام الاسرة والاسرة نواة الامة . فاذا صلحت المرأة صلح الرجل . واذا صلح الرجل صلح المجتمع ، والنساء نصف الشعب الذي يربي نصفه الاخر فاذا ظللن محجوبات جاهلات متعطلات ، ظل المجتمع مريضاً لفقدانه تثقيف الامومة غليظاً لحرمانه تلطيف الانوثة .

يعمل بيد واحدة لان الاخرى شلاء ، ويمشي على قدم واحدة لان الاخرى عرجاء وكانت المرأة في عهد قاسم شيئاً لا يذكر ، واذا ذكر لا ينظر ، انما كانت حبيسة المنزل ، تضرب عليها الحجب وتبث حولها العيون ، وتقضي من دونها الامور ، وينظر اليها الزوج نظرة الى الفراش الملقى ، فلا يؤاكلها على مائدة ، ولا يجالسها في بهو ، ولا يماشيها في شارع ، ولا يشاورها في شأن ، ولا يذكر اسمها الا مكنيا عنه بالبيت او الاولاد او الجماعة . وكان من جريرة ذلك عليها ان وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقد الحرية وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسؤولية ، فلم تفكر الا في حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجواري عن نصيبها من زوجها .

لقد كانت خارجة عن دنيا الناس ، « فلم يبق لها من الكون — كما قال قاسم في كتابه (تحرير المرأة) — الا ما استتر من زوايا المنازل . واختصت بالجهل والتعجب باستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعاً للذة يلهو بها متى اراد ، ويقذف بها في الطريق متى شاء ، له الحرية ولها الرق ، له العلم ولها الجهل ، له العقل ولها البله ، له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن ، وله الامر والنهي وعليها الطاعة والصبر ، له كل شيء في الوجود ،

وهي ض ذلك الكل الذي استولى عليه » •

★ ★

بذلك تأثر قاسم ، وفي ذلك جاهد قاسم ، فعرض القضية على وجوه المعقول والمنقول ، فلم يجد لاستعباد المرأة حجة الا استبداد الرجل ، فجاءه عن طريق الدين والمروءة والمصلحة وفي يديه كتاباه : (تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة) ، يزيّف بهما حجته ويخفف غروره • وكان لا بد لمن يخالف المألوف ويفارض الموروث ويصادم الواقع ان يلقي ما لقيه المرسلون والمصلحون من عنت الجدل ولدد الخصومة •

ولكن محرر المرأة كان قوي الايمان برأيه ، شديد الاخلاص في سعيه ، فلم يهن لما اصابه في سبيل الحق ولم يستكن • وانما بذر البزرة في وسط العواصف الهوج والسحب المرعدة ، ثم تركها في ذمة الطبيعة والزمن وضمن الرجل العنيد على هذه البزرة بالغذاء والري ، حتى ادركها غوث الله فانتشر التعليم ، واتعشت الحرية ، واتصل الجيل الجديد بالمدينة ، فقويت المرأة بتقدم المدنية وشيوع الثقافة ، فحلت قضيتها بنفسها على الرغم من معارضة الرجل •

كان الرجل يأنف ان يشارك امرأته او يشاورها في شأن من شؤون عمله او منزله ، فأصبحت اليوم ولها من القوة ما تسيطر به عليه : فهي تدبر له العيش ، وتحدد له السلوك ، وتختار له الصديق ، وتنتقي له الثوب ، وهو لا يفقه الا ان يلازم ويتابع فلا ينفرد الا باذنها ، ولا يغيب الا بعلمها ، ولا يتقدم عليها في ترتيب ولا يفصل من دونها في خلاف •

وكان الرجل يرفض ان تتعلم المرأة الكتابة مخافة ان تضل عن طريقها بالخارج فأصبحت اليوم ولها من الثقافة ما تنافس به الرجل في المحاماة والطب والادب والصحافة •

وكان الرجل يأبى على زوجته ان تسفر عن وجهها في الطريق فأصبحت اليوم ولها من الحرية ما تسفر به •

وكان الرجل يكره ان تفرغ المرأة باب الصالون على ضيوفه . فأصبحت اليوم ولها من الجرأة ما تقتحم به سور البرلمان على نوابه !

مقالہٴ قومپرستہ

وعينا القومي ينضج

يخطيء من يقيس تقدم امة او تأخرها بما يشاهد من حال السابقين منها او المتخلفين عنها ، فان من سبق انما سبق باعجازه ، ومن تخلف انما تخلف ببعجزه . والاعجاز والعجز من الشذوذ الذي لا يسبب حكما ولا يبني قاعدة . انما يصح القياس بحال الكتلة التي ظلت متماثلة في اللون والكثافة والحركة بعد ان انفصلت منها قطعة الى الامام ، وانخذلت عنها قطع الى الوراء ، لان هذه الكتلة تمثل القدر المشترك من الشعور والادراك والوعي والقلق والطموح والاندفاع ، رأيها هو الرأي العام ، وامرها هو الدستور الحاكم ، ووحياها هو السياسة القومية ، وغضبها هو الثورة الوطنية ، ورضاها هو السلام الدائم . والحكم على الامة العربية — لمن يحلو له ان يحكم — يجب ان يكون بناء على هذا القياس او الاساس ، قائما على حركات كتلتها العجيبة التي ما فتئت منذ مؤتمر فرساي تتقارب وتتضام وتتماسك وتتحد على الرغم من الاسباب المفككة والعوامل المهلكة التي ابتليت بها من سفه الاحزاب السياسية في الداخل وطمع الدول الاستعمارية في الخارج .

كانت هذه الكتلة الممزقة فاقدة الوعي حين ثار احمد عرابي على العناصر الاجنبية ، وكانت فاقدة الوعي حين دعا مصطفى كامل الى الفكرة الوطنية ، ولكن وعيها القومي اخذ يتنبه حين زلزلت الارض قنابل الحرب العالمية الاولى ، فثارت الجزيرة وسورية والعراق على استبعاد الاتراك ، وتمردت مصر على احتلال الانجليز ، واستجابت الامة العربية جمعاء لدعاء الحرية هنا وهناك ، وسارت وراء قادتها بخطى الواثق المطمئن ، فأضلوها السبيل ، واوردوها السراب ، ولكنها استفادت من كلال السير ووعوثة الطريق وسعار الظمأ ، بصرا في الوعي ، وقوة في الموازنة ، وصدقا في التمييز ، وصحة في الحكم ، قلم تكذ الحرب العالمية الثانية تنطفئ حتى كانت امام زعمائها تلههم فيقولون ، وتأمرهم فيفعلون ، وتوجههم

فيتوجهون : ومتى عرفت الامة نفسها ، وأحست نقصها ، وتبينت قصدها ،
أبت على ولاية امرها ان يدلّسوا عليها الرأي ، ويسوهوا لها الباطل ،
ويقنعوها بما دون الحق .

هل نسيت يوم الجلاء في سورية ؟ وكيف تنساه فخذن الحي ولا تزال
اناشيده وزغاريده تدوي في سمع الزمان ؟ أجلت جنود الاستعمار عن ارض
سورية العزيزة فاهتز العالم العربي اهتزاز الغبطة ، واعتز اعتزاز النصر ،
وشعر كل فرد من افراده في مختلف بلاده ، ان فريقا من اهله تحرر من
القيود ، وأن جزءا من وطنه تظهر من المغير ، واقبلت وفود الدول العربية
تشارك دمشق في الاحتفال باقامة العرش الاموي بعد ان حرت قوائمه
وابتذل حماه ، وقال العراق لمصر : ذلك يا اختاه هو الجلاء الذي يكشف
الضرر ، والاستقلال الذي يرضي الحر ، فمتى يكون لنا ولسائر اقطار
العروبة مصير كذا المصير ويوم كهذا اليوم ؟!

ذلك مثال من امثلة الوعي القومي العربي تجلّى في هذا الحادث
الخطير صريحا غير مشوب ، وصحيحا غير مزيف ، فاذا وازنت بين موقف
العرب من استقلال سورية ، وموقفهم من استقلال شرقي الاردن فلن
يخامرك بعد ذلك شك في ان الامة العربية الكريمة انما تصدر عن وعي
بصير ، وتنقل عن شعور صادق .

بلى ، هو الوعي القومي الذي يذكر العرب اليوم انهم خير امة
أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، وتسارع الى الخير
وتتعاون على البر وتتناصر في الشدة ، وتأبى الا ان تتبوأ مكانها الاول
من قيادة الانسانية . ذلك الوعي القومي هو ضمان للنهضة العربية من
الانتكاس والردة ، وامان للسياسة العربية من الغش والخديعة ، ووقار
للوحدة العربية من الشتات والفرقة . فمن يحاول بعد اليوم ان يقود الامة
العربية قيادة القطيع ليذبح ، او يسوسها سياسة الخيل ليركب . نبت في
يديه كما ينبو المارد في يد الرجل اذا انطلق من حبسه ، وامتنعت عليه كما
يمنتع الثور على الطفل متى شعر بنفسه .

حول الديمقراطية

— لا يا عزيزي ! انا لا اتابعك على هذا التفسير . ان رأي الامام محمد عبده جلي صريح ، وكلمة (ينهض) في قوله المأثور : « لا ينهض الشرق الا بمستبد عادل » أساس فكرته وعمود رأيه . فان النهوض لا يكون الا من القعود . والامة القاعدة او الرائدة لا يعيشها الا القرع الشديد والهتاف القوي . ولا يمكن ان يكون هذا القارع الهاتف برأيه العام لانه مفقود ، ولا ضميرها الاجتماعي لانه ميت ، انما يكون رسالة من الله على لسان نبي ، او هداية من الطبيعة على يد مصلح . وتنفيذ الرسالة الالهية ، او الدعوة الاصلاحية ، يرجع الى خليفة يحكم بأمر الله والى طاغية يحكم بأمر نفسه . فاذا كانت الامة قد نهضت بالفعل كان الاستبداد بأمرها كفا لنزعاتها عن الطموح ، وحسبا لملكاتها عن العمل . لان النهضة معناها غافل احس وجوده ، وخامل فهم نفسه ، وجاهل عرف حقه ، وضال وجد سبيله . والحياة التي تسري في افراد الشعب الناهض ، هي بعينها الحياة التي تجري في اعواد الربيع المنبعث : تتحرك في الامة على صوت النذير في الغفلة ، كما تتحرك الطبيعة على هزيم الرعد في الشتاء ، ومتى نفخ الله من روحه في خمود الحي ، سيره على سنة الوجود وبصره بغاية الحياة . وهنا يكون المستبد مهما يعدل سحابا يحجب النور الذي انبثق ، وسموما يصوح الزهر الذي تفتح .

فقال صاحبي الشاب وقد القى باله لما قلت ففترت حماسه بعض القشور :

ولكن المستبد برأيه او الحاكم بأمره يختصر الاراء في رايه ، ويجمع الاهواء على هواه ، فتأمن التشرد الذي يضل ، والتردد الذي يعوق ،

والتواكل الذي يضعف ، والتساهل الذي يحابي • فقلت له :

ذلك يصبح والشعب لا يزال قطيعا من الحيوان الابله ، لا بد له حينئذ من الراعي وعصاه ، اما اذا اصبح هذا القطيع امة لكل فرد من افرادها كرامة وارادة ورأي ومصلحة ، فبأي منطق تلغى هذه العقول الملايين التي جعلت لتفكر ، وتنسخ هذه النفوس الملايين التي خلقت لتريد ، لتجعل مكانها نفسا واحدة تغصب قوت الشعب لتقوده ، وتسرق ثروته لتسوده ، ثم يسرف عليها سلطانها فتتخذ الناس عسدا والبلاد ضيعة ؟

• انا افهم المرء يقهر فيخضع ، ويؤسر فيسرق ، لان الامر في ذلك لا يخرج عن قانون الطبيعة من تغلب الاقوى وسيادة الاصلح ، ولكنني لا استطيع ان افهم كيف يستكين شعب بأسره لواحد منه ، فيلقي بزمامه اليه ، ويعول في جميع اموره عليه • والشعب مهما يصغر لا يقل عن شعب ، والفرد مهما يكبر لا يزيد على فرد ! والقوة والثروة والسلطان هي في ذلك الجمع الذي فيه الجندي والفلاح والعامل ، لا في ذلك الفرد الذي فيه السرف والترف والبغي •

لقد مات ذلك الانسان المغفل الذي كان يجعل الهه حيوانا يربيه ثم يمجده ، او جمادا يصنعه ثم يعبد •

ان الديمقراطية يا صديقي اخلق النظم بكرامة الانسان وسلامة العالم • هبط وحياها على الانسان المفكر الحر في اثينا ، ثم اصابها ما اصاب رسالات الخير في الارض من شيوع الجهالة وبلادة الحس وأثرة الهوى وطفيان الحكم ، فصارت عروسا من عرائس الخيال كالحق والعدل والحرية ، تتمثل في الاحلام وتترأى في المنى ، وتقتل في سبيلها الانفس الكريمة ، حتى ظفر بها الاوروبي الحديث بطول جهاده وكثرة ضحاياه ووفرة علمه وقوة شعوره ، فأصبح كل فرد بمقتضاها صاحب حق في الوطن ، وصاحب رأي في التشريع ، وصاحب صوت في الحكم ، وصار العامل الفقير والصانع الاجير والفلاح المتواضع قادرين على ان يبلغوا

الوظيفة التي لا تفيد ، ويسقطوا الحكومة التي لا تعدل .

الديمقراطية هي المساواة في الحق والواجب ، والمشاركة في الغنم والغرم . وهي الميدان الحر للكفايات الممتازة لا يعوقها عن بلوغ الامد فيه عائق من نسب او لقب او ثروة . فكيف يجري في ذهنك هذا الخاطر وانت من اصفى الشباب حسا وانبلهم نفسا واكثرهم ثقافة ؟

يوم عظيم لسورة العظيمة

يوم عظيم لسوريا العظيمة ! ذلك يوم الجلاء ؟ اشرق عليها بعد ليل طويل بالالام ، مظلم بالأس ، مرعد بالهول ! كابدت في اوائله مشاق (جمال) ، وفي انصافه مدافع (غورو) ، وفي اواخره قواذف (اوليفا روجيه) !

ثم خفقت اشباح الشهداء بيضا على حواشيه ، ولمعت بروق الامال تباعا بين غواشيه ، فانصدغ الظلام المكفر ، واستبان الطريق المبهم ، واستطاع المجاهدون الجاهدون ان يسمعوا على مآذن الجامع الاموي : حي على الفلاح ، وان يصروا تبشير الفوز على غرة الصباح !

وفي الصباح المسفر حمدت سورية الجبية سراها الطويل المرهق فضمدت جروحها الدامية ، وكمدت جفونها القريبة ، ثم ذهبت الى (المزة) فركلت آخر جندي من جنود الاستعمار . ورفعت فوق مطارها العلم ، ورجعت الى (القوطة) فحملت ورودها الجنية الى قبور الشهداء وعزفت امامها النشيد . ثم خرجت في زينتها وبهجتها تستقبل وفود الدول العربية التي جاءت تشاركها السرور في يوم حريتها المشهود وعيد استقلالها المشترك . ثم اطلقت لنفسها المحتشمة عنان الفرح والمرح ، فصدحت شوارعها بالاهازيج ، وهتفت منازلها بالاغاني ، ودوت مساجدها بالادعية ، وفاض النور والجور على دمشق واخواتها فجلون عن أنفسهن في يوم واحد ما ركمته المحن والاحداث في قرون !

حياك الله يا سورية ! لولا ليك الطويل العالك ما اسفر لك هذا النهار الضاحك . ولولا جهادك الصادق الصابر طيلة ربع قرن ما اتم عليك

الله هذا النصر المؤزر ! ولولا دماؤك المسفوحة على ثرى وطنك الغالي ما
جنيت هذه الثمرة التي تتحلب لها الافواه في اكثر الدول ! ولكنك يا سورية
خرجت من جهاد الطمع والعدوان في غيرك ، الى جهاد الهوى والاثرة في
نفسك ! والانتصار على العدو الخارجي سهل كالاتصار على الداء الظاهر ،
ولكن الانتصار على العدو الداخل صعب كالاتصار على الداء المضر .
والمجاهدون في سبيل الوطن لا يبتغون عاجل الثواب ، فاذا سول لهم
الشیطان ان يبتغوه وكلهم الله لانفسهم فيخسرون ما ربحوا ، ويفسدون
ما اصلحوا ، ويسلبهم الله مجد الجهاد فلا ينالون سعادة هنا ولا شهادة
هناك !

ما ازهى نفوسنا بجلاء المحتل عنك يا سوريا ! وما ابهج قلوبنا
بكشف الضر عنك يا دمشق . فهل آن لأكدار النيل ان نصفو يا بردى
ولعار « التل الكبير »^(١) ان يفسل يا ميسلون !؟

نيسان ١٩٤٦

(١) موقعة التل الكبير كانت بين المصريين والانكليز وانتهت بالاحتلال
لمصر ، وميسلون موقعة كانت بين السوريين والفرنسيين وانتهت بعد جهاد
طويل الى جلاء الفرنسيين عن سورية .

الدفاع المقدس

قانون الحياة مادتان : هجوم على القوت ، ودفاع عن الذات • وما كلمات النباهة والمجد والخلود الا طعوم مغريات في يد الطبيعة ، تتذرع بها الى ضمان الحياة بالوفرة ، كما تتذرع بالجمال والشهوة واللذة الى بقاء النوع بالولادة • فالحي الخلق بالبقاء تتوفر فيه ولا ريب قوة السعي لنفسه ، وقوة الوقوف لغيره ، فاذا فقد هاتئ القوتين او احدهما كان طفيليا على مائدة الحياة ، وفضوليا في ملكوت الطبيعة • وليست العزة التي تملك القاصر حين يرشد او التابع حين يستقل ، الا يقظة الانانية في طبعه ، وثورة الحيوية في دمه • وهذا الذي نشهده اليوم في مصر المستقلة من التسابق الى اعداد القوة ، والتنافس في انشاء الدفاع • انما هو استكمال لاحدى وسيلتي العيش ، واستشعار لارقي طبيعتي الوجود فقد كانت مصر قبل عهد هذا الجديد تجري على قدر مجهول في الغيب ، وتعيش على خطر معلوم من العدو • ثم لا تجد في وادها ولا في ايديها ما يدفع الغارة ويمنع الحوزة • فهي كالمرأة حمايتها على الزوج ، وكالقاصر تبعته على الوصي • لذلك خشعت نفوسها امام القوى الساطية خشوع الوحش المروض اذا حطم نابه وقلم ظفره • فلا تدخل في شر ، ولا تشارك في مراء • ولا تملك من دون وليها المحتل نفعا ولا ضرا • القوة هي الدستور النافذ في الارض • فالتسليح خطة السياسة ، والحرب عماد السلام ، والمنفعة حجة القانون ، وعصبة الامم والمعاهدات تدريب^(١) لمخلب الاسد • ولكن الاحتلال الذي غل اليد وشل الارادة قد سلبننا فيما سلب الثقة بالقدرة • والاعتماد على النفس فكنا فقراء مع الغنى • أذلاء على الكثرة • لا ندرى على اليقين قيمة ما نملك ولا مدى ما نطيق •

(١) التدريب تجميل الاظفار بالقص والصبغ

يريد الوطن الضعيف الاعزل من اولئك الذين ربيهم على دلال
السرف . وقلوبهم في أعطاف النعيم ، فحشا جلودهم بخيره ، وافعم خزائهم
بذهبه ، وبسط ملكهم على أكثر ارضه ، ومد نفوذهم على معظم بنييه ،
ان يعززه ليفيء عليهم . ويسلحوه ليدافع عنهم . ويرويه ليدوم لهم
بره وظله .

ما الذي يحبس هذا الامير المترف ان ينفق على سلاح وطنه مثل
ما ينفق على سلاح صيده ويبدل في سبيل امته بعض ما يبذل في سبيل
شهوته ؟

وما لهذا الباشا البطين صاحب الهيل والهيلمان ^(١) ، ومالك الثيران
والايطيان ، ورب النفوذ والسلطان ، يصم اذنيه عن نداء وطنه . وانما
عظمته من فضله ، وعزته من اهلته ، وثروته من ثراه ! ايتلكأ الباشا ويتبظأ
الامير حتى تنشأ عدة الدفاع مما يرضخ ^(٢) به الفقير والاجير والعامل ؟
وهل ترك هذا او ذاك لاحد من هؤلاء شيئا يعطيه ؟ وهل من المروءة ان
يدعوا الفقير او الاجير يتبرع من قوته وهو لا يكفيه ؟

★ ★

سادتي اصحاب السمو وارباب السعادة ! ان الفقير يغذيكم طيلة
العمر بعرقه . وسيدافع عنكم يوم الفزع بدمه ، ولن يكلفكم هذا الصابر
المسكين الا ان تشتروا له الفأس وتقدموا اليه السلاح ، فهل هذا كثير .

(١) المال الكثير .

(٢) رضح له بالمال : اعطاه قليلا منه .

أبناء العروبة

كان مبعث الجفاء بين اقطار العروبة انقطاع الاسباب وبعد الشقة • ثم غشيت كل سماء من سماواتها الزهر غمة من اطلماع الغرب حجبت عن العيون الضياء ، وعن النفوس الصفاء ، وعن العقول المعرفة • فذهب القوم اشتاتا يتلمس كل امريء في الظلام طريقه ! حتى اذا استيقظ في الوجدان شعور العروبة ، وعاد فأشرق في الازدهان نور الدين ؛ ابصرنا فاذا بيننا من بقي الانسان على الانسان حواجز تتقاصر عندها الخطي ، وتتناكر عندها المعارف !

ازيلوا قائم الحدود وجندوا دارس الطريق تتلاق الوجوه وتتعارف الاخوة • ازيلوا الحدود تجدوا الاتحاد العربي جارفا كدعوة محمد ، سريعا كفتوح امية ، خصيبا كحضارة العباس !

هذه هي مصر الصحيحة يا شباب العرب ! لا يزال دينها دينكم ، ولغتها لغتكم ، وهواها هواكم • سوف تتجه (ابنة الشمس) الى مطلع الشمس ! وهناك يكون مجد العرب اليوم كما كان مجدهم بالامس ! وليس الشرق موطن الديانات والمدنيات بضيق ولا جديب •

ان الارض لتزلزل في كل مكان بالدخيل ! وان تاريخ الجدود لينبجس فوارا حارا من صحون المساجد الجامعة ! هل تذكرون ثورة بغداد في جامع الحيدر خانة ؟ هل رأيتم غضبة دمشق في الجامع الاموي هل سمعتم صرخة القدس في الجامع الاقصى ؟ هل علمتم وثبة القاهرة من الجامع الازهر ؟ ان ذلك معنى عجيبا لا يند عن خاطر ولا يلتوي على ذهن : ذلك ان المنارة التي يذكر عليها اسم الله لا تزال هي المكان الذي يرتفع فيه صوت الحرية •

وان المحراب الذي يقوم فيه الدين لا يزال هو الركن الذي يأوي اليه
انحق . وان الاسلام الذي الف شتيت البدو في الاول هو النظام الذي
يجمع شمل العرب في الاخر !

★ ★

لقد كانت زيارة الطلاب العراقيين فرصة ميمونة لتوثيق الصلات
التاريخية المقدسة . صافحونا بالايدي ، وخطبونا بالالسن ، وسمعونا
بالاذان ، فانمحت الفوارق العارضة . وانجابت الحجب الكثيفة ، واستبان
للناس ان الخيال جان على الحقيقة ، وان السماع كاذب على العيان ، وان
الوحدة المستحيلة امر من الواقع !

نعم البرق شاعر العراق الزهاوي والمصريون والعراقيون في حفلة
اتحاد الجامعة ، فكان وقع المصائب في نفوس الفريقين واحدا لا يختلف .
وقام كبير الادباء فآين كبير الشعراء بكلمة تلقاها الاخوان بعاطفة واحدة
وشعور مشترك ، لان الزهاوي كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف دجلة ،
فتردد اصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب !
وادب الزهاوي وامثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون
السود بخيوط الهية غير منظورة . ولولاها لما تهيأ للعراق هذه الزورة !
وبهذه الزورة وامثالها تتعارف وتتآلف وتتحد . فتعالوا يا اخلاف المجد
الفقيد واسلاف المجد الوليد تتعاون على دفع الاذى عن العزة المهانة ! تعالوا
نقر في سماع الزمان ان امة الرسالة تريد ان تؤدي الامانة ! ولكن قبل ذلك
كله :

تعالوا نجدد دارس العهد بيننا كلانا على هذا الجفاء ملوم

فرعونيون وعرب

عفا الله عن كتابنا الصحفيين ! ما أقدرهم على ان يثيروا عاصفة من غير ربح ، ويعثوا حربا من غير جند !
حلا لبعضهم ذات يوم أن يكون بيزنطيا يجادل في الدجاجة والبيضة
أيتهما أصل الاخرى ؟ فقال على هذا القياس : أفرعونيون نحن أم عرب ؟
أنقيم ثقافتنا على الفرعونية أم نقيمها على العربية ؟

نعم قالوا ذلك القول وجادلوا فيه جدال من اعطى أزمة النفوس
وأعنة الاهواء يقول لها كوني فرعونية فتكون ، أو كوني عربية فتكون !
ثم اشتهر بالرأي الفرعوني اثنان أو ثلاثة من رجال الجدل وساسة الكلام ،
فبسطوه في المقالات ، وأيدوه بالمنظرات ، ورددوه في المحادثات ، حتى خال
بنو الاعمام في العراق والشام ان الامر جد ، وان الفكرة عقيدة ، وان ثلاثة
من الكتاب أمة ، وأن مصر رأس البلاد العربية قد جعلت المآذن مسلات ،
والمساجد معابد ، والكنائس هياكل ، والعلماء كهنة !

مهلا بني قومنا لا تعتدوا بشهوة الجدل على الحق ! ورويدا بني عمننا
لا تسيئوا بقسوة الظن الى القرابة !

فبأي شيء من هذا يتمازى اخواننا الجدليون وهم كشفوا في أنفسهم
عن مصادر الفكر ومنابع الشعور ومواقع الالهام لرأوا الروح العربية تشرق
في قلوبهم ديننا ، وتسري في دمائهم أدبا ، وتجري على ألسنتهم لغة ، وتفيض
في عواطفهم كرامة ؟

لا نريد ان نجاحم بما قرره العلماء المحدثون من ان المصرية الجاهلية
تنزع بعرق الى العربية الجاهلية ، فان هذا الحجاج ينقطع فيه النفس ولا

ينقطع به الجدل... وكفى بالواقع المشهود دليلا وحجة . هذه مصر
الحاضرة تقوم على ثلاثة عشر قرنا وثلاثا من التاريخ العربي نسخت ما قبلها
كما تنسخ الشمس الضاحية سوانح الظلال... وذلك ماضي مصر الحي
الذي يصبح في الدم ، ويشور في الاعصاب ، ويدفع بالحاضر الى مستقبل
ثابت الاس شامخ الذرى عزيز الدعائم .

أزهقوا ان استطعتم هذه الروح ، وامجوا ولو بالفرض هذا الماضي ،
ثم انظروا ما يبقى في يد الزمان من مصر . هل يبقى غير أشلاء^(١) من بقايا
السوط ، وأنضاء^(٢) من ضحايا الجور ، وأشباح طائفة ترتل « كتاب
الاموات » ، وجباه ضارعة تسجد للصخور وتعنو للمجماوات ، وقبور
ذهبية الاحشاء ابتلعت الدور حتى زحمت بانتفاخها الارض ، وفنون خرافية
شغلها الموت حتى أغفلت الدنيا وأنكرت الحياة ؟ وهل ذلك الا الماضي
الابعد الذي تريدون ان يكون قاعدة لمصر الحديثة تصور بالوانه وتشدو
بالحانه وتحيا أخيرا بروحه ؟ ولكن أين تحسّر بالله هذه الروح ؟ ان
أرواح الشعوب لا تنتقل الى الاعقاب الا في نتاج العقول والقرائح . فهل
كشفت بجانب الهياكل الموحشة والقبور الصم مكتبة واحدة تحدثكم عن
فلسفة كفلسفة اليونان ، وتشريع كتشريع الرومان ، وشعر كشعر العرب ؟
أم الحق ان مصر القديمة دفن فنيت روحه مع الالهة ، وصحائف موت ذهب
سرها مع الكهنة ، والخامد لا يبعث حياة ، والجامد لا يلد حركة ؟

لا تستطيع مصر الا ان تكون فصلا من كتاب المجد العربي ، لانها لا
تجد مددا لحيويتها ، ولا سندا لقوتها ، ولا أساسا لثقافتها ، الا في رسالة
العرب . اما ان يكون لادبها طابعه ولقنها لونه ، فذلك قانون الطبيعة ولا
شأن (لينا) ولا (ليعرب) فيه ، لان الاداب والفنون ملاكها الخيال ، والخيال
غذاؤه الحس ، والحس موضوعه البيئة ، والبيئة عمل من أعمال الطبيعة
يختلف باختلافها في كل قطر . فاذا لم يوفق الفنان بين عمله وعمل الطبيعة ،

(١) الاشلاء جمع شلو وهو العضو بعد البلى والتفريق

(٢) الانضاء جمع نضو وهو المهزول .

ويؤلف بين روحه وروح البيئة فاتته الصبغة المحلية وهي شرط جوهري
نصدق الاسلوب وسلامة الصورة. • وقدما كان لون الادب في الحجاز
غيره في نجد ، وفي العراق غيره في الشام ، وفي مصر غيره في الاندلس ،
دون ان يسبق هذا التباير دعوة ولا أن يلحق به أثر ؟

انشروا ما ضمنت القبور من رفات الفراعين ، واستقروا من الصخور
الصلاب أخبار الهالكين ، وغالبوا البلى على ما بقي في يده من اكفان الماضي
الزريم ، ثم تحدثوا وأطيلوا الحديث عن ضخامة الاثار وعظمة النيل وجمال
الوادي وجمال الشعب ، ولكن اذكروا دائما ان الروح التي تنفخونها في
مومياء فرعون هي روح عمر ، وأن اللسان الذي تنشرون به مجد مصر
هو لسان مضر ، وان القيثار الذي توقعون عليه الحان النيل هو قيثار امرئ
القيس ، وان آثار العرب المعنوية التي لا تزال تعمر الصدور وتملأ السطور
وتغذي العالم ، هي ادعى الى الفخر وابتقى على الدهر واجدى على الناس
من صفائح الذهب وجنادل الحجارة •

انما تتفاضل الامم بما قدمت للخلقة من خير ، وتتفاوت الاعمال بما
أجدت على الانسان من نفع • أليس (الخزان) خيرا من الكرنك ، والازهر
افضل من الاهرام ، ودار الكتب أنفس من دار الاثار ؟

وبعد فان ثقافتنا الحديثة انما تقوم في روحها على الاسلام والمسيحية ،
وفي أدبها على الاداب العربية والفريية ، وفي علمها على القرائح الاوربية
الخالصة • أما ثقافة (البردي) فليس يربطها بمصر العربية رباط ، لا بالمسلمين
ولا بالاقباط •
اول تشرين الاول ١٩٣٣

مالى ما أكتب

لم أكن كالיום أرهف شعورا بالجمال ، ولا ابلغ تأثرا بالطبيعة ، ولا اشد انطواء على النفس ؛ ولكن أكثر ما يتمثل في الخيال ، أو يخطر على انبال سوانح هي بالشعر اشبه والى الغناء اقرب . فاذا هم باقناصها القلم اندلعت من جوانب النفس زفرات وقودها الصهيونيون واللاجئون والحرب والهدنة ومجلس الامن وهيئة الامم ، فأنصرفه عن الغناء الى الرثاء ، وانتقل من الضحك الى البكاء ، واهم بتلحين الالم وتوقيع الانين فتنبعث من نواحي العقل اصوات تستنكر وتستغفر وتقول : لقد خطبنا حتى جف الريق ، وكتبنا حتى فقد المداد ، وبكينا حتى نضب الدمع ، فما الذي اغنى عنا كل اولئك ؟ ألا يزال أراناب اليهود مغرورين يتبجحون بالدولة والجيش ؟ ألا يزال عرب فلسطين مشردين يكابدون ذل الاعتراب وشظف العيش ؟ ألا يزال ترومان الاخرق يجري على سياسة الهوى والطيش ؟ ألا يزال برنادوت الغريستر عجزه بالمداهنة والفيش ^(١) ؟ فأصيح الى صوت العقل واقول : بلى كل اولئك لا يزال ، وأتمنى على الله رب العالمين وناصر العرب والمسلمين ، ان يستحيل اللسان في فمي حساما يضرب ، واليراع في يدي سنانا يطعن ، والغضب في نفسي عاصفة تدمر ، والضعف في جسدي قوة تبديد . فانا الان مترجح بين طرفين كلما ملت الى احدهما جذبني اليه الاخر : انظر بعيني الى مفاتن الطبيعة في ضفاف النهر وحواشي الحقول ومماشي الرياض فأبتهج ، ثم انظر بقلبي الى مخازي الناس في صور النذالة والجور والبؤس بفلسطين فأكتب ، ثم يضيئني العي والخرس لان ابتهاجي عابر

(١) الفيش ان تفخر وليس عندك ما يتوجب الفخر

(٢) من وحي الحرب .

لا يحدث غير الافترار ؛ ولان اكتابي عاجز لا يبعث غير الدمع •
واذا حصلت من السلاح على البكا فحشاك رعت به وخذك تفرع
ان نكبة فلسطين ومحنة العرب قد غطتا على كل حاسة وغلبتا على
كل عاطفة • فالفكر فيهما والحديث عنهما ملء القلوب وشغل اللسان •
ولكن الكلام هواء ، والبكاء ضعف ، والمنى أباطيل ، والمهادنة غش ،
والمفاوضة عجز ، فلم يبق الا ان نسكت لنعمل ، وندبر لتنفيذ ، وتتقوى
لنسود ، وتتسلح لننجح ، ونقتل لنحيا ، ونظلم لنحترم !
لو كان في الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية • ولو كان في الناس
عدل لما اصطحلت على ظلمنا الشيوعية والرأسمالية • ولو كان في الامر
اختيار لما تركت سيوفنا من بني يهوذا بقية !
ألا ان أفدح الخطوب أن يخاصم الاسود القروء ، وان اقبح الحروب
ان يقاتل العرب اليهود !

الربيع الأحمر

الربيع الاحمر ! فلك هو الربيع المقبل كما يتصوره الشاعر !
لا يزال الربيع جنينا في بطن الارض ، وان الطبيعة لتهيء لجذوره .
وبذوره الغذاء المريء والنساء الوضيء من دماء البشر !

سيولد ولادة الملوك على حشد الجنود وخفق البنود وقصف المدافع .
وسيدرج في غلائله الارجوانية الموشاة على فجوات القنابل وأخايدها ،
فيذر الحياة في الموت ، وينشر الجمال على القبح ، وينثر أزهاره الفضة
على جثث وقبور ! ويومئذ لا تدري وأنت ترى غيم الدخان وبرق التيار ،
وتسمع صفير الرصاص ورعد القذائف ، أنحن في ربيع نيسان أم في شتاء
كأنون ؟

★ ★

الربيع الاحمر ! ذلك هو الربيع الذي لا يخلقه الله وانما يخلقه
الانسان !

سيخلقه من الذهب والذهب والدم ، فيجعل من الجداول خنادق ومن
الاغصان بنادق ومن الارواح مدافع ، واذن تصبح الاعشاش الناعمة المفردة
المعطرة مثابة بؤس ومناحة شباب ومستودع غاز !

سيعود ربيع الله الاخضر بطيوره وزهوره ونوره وسروره الى الجنة ،
وسيستعير الانسان مادة ربيع الدامي من جهنم ، فينبث في كل بقعة من
بقاع الارض آجام من شجر الزقوم الباسق الالف ، تثر في آفاقها الطوائر
وتعج في اجوافها المدافع ، وتدب في مدارجها الدبابات ، وتهب في مجاريها
السموم ، وترقد فيها اناشيد السلام وأغاريد الغزل أنات وصرخات تذوب

لهولها الهائل قلوب الشياطين !

تبصروا أيها السادرون من ساسة الشعوب ! أهذا هو الربيع الريان الذي جعله الله حدة للحياة ومتعة للحى ، أم هو الخريف الميت أحرقتة الحرب باللهب ، وكفنته بالنجيع ، وأخذت عواصفها الرعن تكسح الارواح الساقطة قبل الاوان لتقذف بها فى هوى العدم ؟ لم تستعجلون أمر الله ؛ وتستقدمون يوم القارعة ؛ وتحاولون ان تدكوا الارض ؛ وتشقوا السماء ، وتذروا الكون الذي عمرته القرون وحضرته الامم كمعبد (داجون) أنقاضا على شمشون وأعدائه ؟

هيهات ان تصيخ اليوم لنداء السلم اذن ! لقد جمح الهوى بالعقل جموح الفرس الشموس ؛ فلا هو يسمع الصوت المهيب ؛ ولا هو يطيع اللجام الكابح !

تلك مشيئة الله ؛ وما تشاءون الا ان يشاء . ولعله ؛ عزت حكمته ؛ يريد من هذه القيامة العاجلة ان يحيى الناس حياة اخرى على نمط من الهداية جديد .



الربيع الاحمر ! ذلك هو الربيع الخلاق الذي يهز الارض هذا فتربو وتنبث ! سيهزها هز العافية ليسقط الداوي وينتفش الهامد . والحرب تشذيب لغرس الله تقوى عليه الفصون ؛ ويزكو بعده الثمر . وآفة الحرب انها تودي بالصالح للحياة وتبقى على الصالح للموت ؛ ولكنها كالسيل الاتى يجرف تياره الجنى واليابس ؛ ويعرق طفيانه العامر والغامر ؛ فسادا انقطعت روافده وجفت مجاريه عادت الارض به أخصب تربة وأوفر غلة .

مرحبا بالحرب اذا لم يكن من خوض غمارها بد ! انها تقطع الفضول وتنفي الخبث وتذيب الغش وتذهب الوهن . ولعلنا أحوج الامم الى ظهور الحرب يدحض عنا رخاوة الذلة واستكائة الرق ا فقد غيرت على وجوهنا قرون من التبعية المستسلمة لو مرت على الضواري لطمست فى جباهها معارف

الجرأة ، وأماتت في نفوسها معاني الافتراس • كنا نعيش في ظلال المتبوع
عيش الامان والعفلة ، لا نعرف الجود الا على الورق ، ولا نشهد الحروب
الا في السينما ، ولا ندرك معنى الدفاع عن النفس في وجود الحامي الا كما
تدركه الزوجة المرفهة في وجود زوجها ، والولد المدلل في حضرة أبيه ، حتى
فشا فينا الجبن ، وغلب علينا التواكل ، وقعد بنا الرضى فتركنا ثروتنا
للغريب ، ووكلنا حمايتنا للحليف ، وفزعنا للتنافس في الهزل ، والتراشق
بالتهم ، والتسابق الى النيابة ، او الحكم من غير كفاية ولا غاية !

الربيع الاحمر ! ذلك هو الربيع الجبار الذي يأكل غشاء الخريف وحطام
الشتاء ليحيلهما في جوفه الناري غذاء لشجره ونماء لثمره !

هو وحده الذي يستطيع ان يقطع الحطب ، ويقتلع العليق وينبت
على الجذور البالية خلفه نامية زاكية تهىء الروض الهامد للنضارة والطهارة
• الانتاج والبركة •

ان روضنا يا ربيع هشيم وخشب ! فأحيه بالماء او الدم ، وعالجه
بالغذاء او بالسّم ، ولا بد ان يضحى بجيل في سبين جيل !

يُحَظِّمُ سَاءَ وَالْقَبِيحِ

محمد الزعيم

ولدت سنتنا الهجرية الجديدة وأسفاه في هذه الايام التي اختبل فيها انسان الغرب فزلزل جوانب الارض على نفسه . وابكم في فمه حجة العقل ووحى الضمير . فلا يتكلم الا بلسان النار . ولا يصول الا بياس الحديد . وراحت المنايا الرواعد تدكدك المدن والناس في فجوات القنابل ، فلا ترى انيوم في بلاد الحرب غير مقبور او منتظر ، ولا في بلاد الحياذ غير مذعور او حذر . ومفزع الشعوب في غشية هذه الخطوب الزعماء والقادة . فليت شعري الى من يفزع العرب والمسلمون من هول هذه الساعة ؟ لم يتج الله لهم بعد محمد وخلفائه زعيما تجتمع عليه القلوب وترجع اليه الامور في أقطارهم البعيدة ووجوههم المختلفة ، وانما ابتلاهم بالانقسام حين ضلوا الطريق ، فكان في كل قطعة من الوطن الاكبر سرير وأمير ، وتوزعت زعامة محمد في كل جيل وفي كل قبيل بين عشرات من الرجال العجاف ، فكانت كالشعلة العظيمة الواهجة تقطعت أقباسا كشموع الاطفال لا تقوى على نسيم الريح ولا تظهر في حلك الليل !

★ ★

تعالوا يا زعماء اليوم عانين خاشعين ألق عليكم درسا من زعامة محمد ! ان فيكم زعماء أحزاب ، وليس فيكم زعيم أمة . أما هو فكان زعيم الانسانية جمعا .

بلغتم مكان الزعامة الاقليمية عن طريق الحزبية او الثروة او القوة ، ثم لم تستطيعوا ان تنسوا ضعف القمى الصغير الذي ارتفع على كواهل غيره ، أما هو فقد بلغ الزعامة العالمية عن طريق الالم والفقر والغربة والجهاد ثم جعل في عشر سنين من الرعاية الجفاة المشتتين على رمال القفر ، أمة

متناسكة الاجزاء متحدة الاهواء ، متساندة القوى ، متجانسة الطباع ،
بلغت رسالة الله وحكمت عامر الارض ، ومدنت أكثر العالم •

انكم تكونون قبل انزعامة ناسا كالناس ، ثم تصبحون بعدها الالهة
كالآلهة ، تنكرون الخاصة ، وتزدرون العامة ، ثم تمتازون فتدخلون بفضل
المباديء المزورة والمناصب المسخرة في دنيا النبلاء والاغنياء • وماذا بعد
هذا ؟ أما هو فقد ملك الحجاز واليمن ، وحبي الجزيرة كلها وما داناها
من العراق والشام ، وظل ينام على فراش من آدم حشوه ليف ، ويبيت هو
وأهله الليالي طاوين لا يجدون العشاء ، ويمكثون الشهر لا يستوقدون
نارا • ان هو الا التمر والماء ، ويلبس الكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم
على الناس أقبية الدياج المخوص بالذهب ، فاذا أقبل على أصحابه ققاموا
اجلالا له قال لهم : « لا تقوموا كما تقوم الاعاجم يعظم بعضهم بعضا •
انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، واجلس كما يجلس العبد » • وكان
ذات مرة في سفر فأمر أصحابه باصلاح شاة • فقال له رجل : علي ذبحها ،
وقال ثان : علي سلخها ، وقال ثالث : علي طبخها • فقال الرسول صلوات
الله عليه : وعلي جمع الحطب • فقالوا : يا رسول الله نكفيك العمل •
فقال : علمت انكم تكفونني اياه ولكني اكره ان اتميز عليكم !

ولما استعز الله بقاسم الفيء زعيم الجزيرة وسيد الملوك كانت درعه
مرهونة عند يهودي في نفقة عياله !

انكم حينما تتزعمون لا تفكرون الا في مشوبة الصديق وعقوبة العدو ،
ثم لا تخرج اعمالكم وآمالكم عن دائرة الحزبية الصغيرة الحقيرة ، فالمنفعة
تقاس بمقياس الحزب والسياسة تتلون بلون المنفعة ، أما هو فكان يعادي
في الله ويصادق في الله • اشتط في أذاه المشركون في مكة والمنافقون في
المدينة ، فلما أمكنه الله منهم بسط عليهم جناح عفوه ، وقال لقريش يوم
الفتح : يا مبشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟ قالوا : خيرا ! أخ كريم
وابن أخ كريم ! قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء •

ثم كانت سياسته كنوز الله لا تعرف الحدود ولا الخصوص ولا الزمن ، انما هي سر الخالق العظيم أسنملن في سكون الصحراء على لسان الرسول العظيم ، ثم دوى في غياهب الافاق ومجاهل الابد ليكون الشعاع الهادي لكل ضال ، والنداء الموقظ لكل غافل .

انكم تسيرون الجنود الى الخنادق وتبيتون على حشانا الديباج ، وترسلون العمال الى المهالك وتظلون في أبراج العاج ، أما هو فكان يقاتل مع الجندي حتى يدمى ، ويعمل مع العامل حتى ينصب . وكان صحبه اذا احتدم البأس واحمرت الحقد اتقوا به فما يكون احد اقرب الى العدو منه ! ذلك محمد يا زعماء اليوم وهؤلاء أتم ! فهل تحسون بينكم وبينه صلة ، او تجدون بين سياستكم وسياسته مشابهة ؟

لا تقولوا انه الوحي ، فما كانت حياة الرسول كلها ولا سياسته كلها من هدى الوحي ، ولكن قولوا انها الرجولة الكاملة والخلق العظيم والعبقرية الفذة والشخصية القوية . وصفة القوة لا تدل على شيء في شخصية الرسول ، فانها لم تظهر في أحد قبله ولا بعده حتى يقوم بها وصف وما ظنكم بشخصية تخضع لليتيم العديم الزاري على الالهة والسادة الرؤوس الطاغية والنفوس العاتية والقلوب الغلاظ ، فيسمتون سمته في الخلال ، وينهجون نهجه في العيش يأخذون اخذه في المعاملة ، ويجمعون على حبه وطاعته وتفديته اجماعا لا يخرقه الا الكفر بالله . فأقواله سنن تتبع ، وأعماله عهود تحفظ ، وآراؤه أوامر تطاع ، واحكامه أقضية تنفذ . فعليكم يا زعماءنا بسيرة محمد وسياسة محمد ، فلعل فيكم من تدركه نفحة من نفحاته القدسية فيجدد مارث من دعوته ، ويجمع ماشت من وحدته ، ويصلح ما فسد من أمته ! « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها » .

٤ آذار ١٩٤٠

أبو العلاء المعري

في اليوم السابع والعشرين من شهر ربيع الاول عام ٣٦٣ ، والشمس في الغروب ، والقمر في المحاق ^(١) والمرة في همود الكلال ، والطبيعة في فتور الكرى ، ولد الطفل النبيل أحمد أبو العلاء !

كان في ظلام الرحم ، وولد في ظلام العشية ، ثم عاش في ظلام البصر ، وانتهى الى ظلام القبر ! ومن هذا الظلام المتصل ^(٢) نسج القدر حياة أبي العلاء ، وأنشأ عواطفه ، وسود فلسفته ، وأبهم عقيدته ، وأوحش نفسه !

ومن هذا الظلام ايضا تفجر النور كله على قلبه وعقله ، فكان آية من آيات ربه الكبرى في ذكاء الفهم ولطافة الحس وقوة الحفظ ودقة التخيل وهو القائل :

سواد العين زار سراد قلبي ليتفقا على فهم الامور

واذا كان لكل عاهة من عاهات الحس تعويض من قوى الروح فان لها كذلك اثرا شديدا في حياة المعوه ، ترسم له الطريق وتعين له الغاية . فعاهة ابي العلاء فرضت عليه ان يجعل العلم شغل حياته ، واختارت له من العلم انواعه النقلية والنظرية مما تغنى فيه الحافظة وتعين عليه المخيلة ، كاللغة والدين والشعر ، ووسائلها من الرواية والنحو والصرف والعروض ، ففضى عمره ^(٣) الاول بين أيدي الشيوخ في الشام وبغداد ، او على مقاعد

(١) المحاق : ثلاث ليال من آخر الشهر لا يرى فيها القمر .

(٢) لم يبصر ابو العلاء الدنيا الا ثلاثة اعوام قبل ان يصاب بالجدي كانت عليه ظلاما معنويا لقلته وعيه وضعف ادراكه .

(٣) العمر اربعون سنة ، وناهز فلان العمرين اذا قارب الثمانين .

المكتبات في المساجد والاديرة ، يسمع ويعي ، ويجمع ويستوعب ، حتى لم يدع كلمة في معاجم اللغة وكلام العرب الا علقها ، ولا مسألة من مسائل العلوم الادبية الا حذقها . ثم قضى عمره الثاني معتكفا في داره ، يعسل الشهد تعسيل النحل امتلات بطونها برحيق الزهر المختلف ، ويقطر الزلال تقطير المرشح الضخم أفعم جوفه بماء السيل المشوب . ولغلبة الادب على حافظته لم ينضح فؤاده الا به ، وكتبه التي املاها وهي تربي على المائتين ثم تخرج عن فنون الادب المختلفة . اما علمه بالفلسفة وسائر العلوم فقد كان علم الاديب ، يأخذ منها ولا يعطيها ، ويشارك فيها ولا يختص بها . وأروع مظاهر النبوغ في ثقافته الادبية احاطته باللغة احاطة المستوعب ، حتى كانوا اذا عدوا من رزقوا السعادة في شيء لم يؤته الله غيرهم ، عدوا أبا العلاء ممن تفرد بالاطلاع الواسع على لسان العرب . ومن هنا طغى الغريب على نظمه وثره ، اذ كان همه مصروفا الى تقييد الاواهد اللغوية مما جمع عليه وعاء قلبه . وما كان في نية أبي العلاء أن يكتب لدهماء الناس ، انما كان يكتب لنفسه ولتلاميذه . فهو ينظم ليرتاض ، ويؤلف ليسجل ، ويملي ليعلم . ومن قوله في مقدمة سقط الزند : « لم أطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ، ولا مدحت طلبا للشواب ، وانما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السوس ^(١) » ، فاذا كتب للعامة اشرق لفظه وسهل أسلوبه ، كما صنع في كتابه (سيف الخطيب) ، وهو مجموعة من الخطب المنبرية ألفها على حروف من حروف المعجم ، ثم قال : « وتركت الجيم والخاء وما يجري مجراهما ، لان الكلام المقول في الجماعات ينبغي ان يكون سجنجا سهلا » .

وعاهة أبي العلاء هي التي جذبت اليه العيون وشغلت به الالسن ، لان الضير الذي يجيد النرد والشطرنج ، ويدخل في كل باب من أبواب الجد والهزل ، ويحفظ من مرة واحدة ما يرد على سمعه مما يفهم وما لا يفهم ، عجيبة من العجائب التي يجب ان ترى ، وتستحق ان تروى . واكتظاظ مجلسه بالناس سبيل الى الفضول والتزيد منهم ، والى مقابلة

(١) السوس : الطبيعة ، تقول : الفصاحة من سوسه اي من طبعه

الحال بالحال وموازنة الحظ بالحظ منه . وأبو العلاء الذي خلق بحكم
منبته الكريم عزيز النفس رفيع الهوى ظاهر المزية ، كان يستشعر العجز
والنقص بما يعلم من انطفاء بصره ودمامة وجهه وضالة بدنه وقصر قامته ،
فكان لذلك شديد التيقظ لحركات الجالس وكلمات المتكلم . وربما
أساء الظن ببرىء ، وتوهم الاساءة من محسن . وهو في طعامه وهندامه
وسلامه وقيامه عرضة للخطأ ومظنة للمؤاخذة ؛ فكان لا ينفك متزايلًا (١)
ضجرا يديم الحذر ويؤثر العزلة .

صاحب ابو العلاء الزمان ولا يلبس الناس وراود السعادة حتى استحار
شبابه فلم تزد الايام الا يقينا بعجزه الطبيعي عن مجاراة الانداد في سباق
الحياة ، وعن مرضاة النفس بلذات العيش ، وعن منازلة الخصوم بسلاح
الافك ، فانقلب الى داره نافضا كفيه من دهر لا رجية له فيه ؛ وعالم لا
صديق له به ؛ ونعيم لا نصيب له منه . وساعد على امضائه نية الاعتزال
فجميعته في أمه وهي الظل الذي يأوي اليه ؛ والسبب الذي يتعلق به ؛ فزهد
في الدنيا وصدف عن الناس ؛ واخذ نفسه لخشونة والحرمان خمسا وأربعين
سنة لا يلبس غير القطن ؛ ولا يفرش غير اللبد ، ولا يأكل غير العدس ؛
ولا يتفكه الا بالتين . وهو في أثناء ذلك الدهر الطويل منطو على نفسه ؛
متحامل على ذهنه ؛ يحوك القوافي ويصوغ الاسجاع في التسييح لله ؛
والتزهيد في العيش ؛ والترغيب عن الزواج ، والزراية على أم دفر (٢)
والتنديد بأبي البشر ، والتشنيع على رياء اهل الدين وجور اصحاب الحكم،
والتشكيك في صلاح الانظمة والشرائع .

كان أبو العلاء في شببته نسيم رحمة ، ثم صار في كهولته عاصفة
ديمار ! ولعله لو كان بضيرا متفائلا كالجاحظ ، أو ضريرا شهوان كبشار ،
لتبدل حكمه على الدنيا ، وتغير رأيه في الناس !

(١) متزايلًا : متقبضا

(٢) أم دفر : هي الدنيا في شعر أبي العلاء

المتنبى

ولد أبو الطيب في ذرور القرن الرابع الهجري عظيما بالاستعداد قويا بالنشأة ، طموحا بالفطرة . فلا تحاول ان ترجع هذه الصفات فيه الى احوال داعية واسباب موجبة ، فان اعجاز القدرة ان يولد الملك في حجر السوقه . ويدرج العبقري في عش القدم ^(١) ويظهر النبي في بيت المشرك . انما العظمة خلقة في العظيم ، تقويها عوامل وتضعفها عوامل . فولادة المتنبى بالكوفة ، وتجوله في البادية ، وتنقله في القبائل ، وكدحه الدائب أربعا وثلاثين سنة وراء الرزق الشرود ، يضرب من افق الى أفق ، ويخرج من هول الى هول ، نمت فيه اخلاق الجرأة والصراحة والصدق والصبر والمغامرة واللسن ، وان اتصالة بسيف الدولة الاديب الشجاع السمع هذب فيه الشعرية والفروسية ، وهما غريزتا البداوة وخصيصة العروبة ، ثم ظهوره في العصر الذي تحللت فيه روابط الخلافة، وتعددت حواضر الادب، وتناولت كفايات السيف والقلم الى العروش العظيمة والمناصب الفخمة ، وأثمر تداخل الثقافات المختلفة ما أثمر من شمول العلم ونضج العقل واعتراض الشكوك وتعدد الفرق ، كل اولئك وسع في ذهنه أفق المعرفة ، وقوى في نفسه الطموح الى الرياسة ، وهيج في رأسه الثورة على القدر ، وأراه في بغداد كاتباً من الكتاب يصل بالادب الى الوزارة ، وفي مصر عبداً من العبيد يصل بالحنيلة الى الامارة ، فطوع له رأيه في نفسه ان يبايع لها بالملك ، ثم اخذها بسمت الملوك ، وألزمها شارة الخاصة ، وعاشر الدهماء معاشرة الانوف المكروه ، وسائر الرؤساء مسايرة الغريم الحاقد، وسخر قوته وعبقريته في طلب هذا (الحق) ^(٢) وتحقيق هذا المطلب حتى ملأ الدنيا بذكره

(١) القدم : الفبي

(٢) قال في قصيدة له

كانهمو من طول ما التشموا مرد

سأطلب حقى بالقناء ومشايخ

وشغل الناس بأمره .

★ ★

للمتنبي في كتاب الادب العربي فصل قائم بذاته ، لان حياته التي اختلفت عليها العوامل ، وازدحمت فيها الاحداث ، واعتكرت بها الآمال ، وفاضت منها التجارب ، أمكنته من نوع جديد في الشعر يتسم بالتفكير الحي والابتداع الجريء والاداء الحر ، فأقبل عليه عشاق الادب وطلاب الشهرة من ذوي السلطان في خراسان والعراق والشام ومصر ، يتسابقون الى وده ويتنافسون في رضاه . وقد توسل بعضهم بالشفاعة ليحطبه في حبله ، وجلس أحدهم بين يديه ليسمع مدحه فيه ، وكان يتصون عن مدح السوق ، ويتكرم عن موقف الشاعر ، فسعي اليه الرؤساء المحرومون بالعداوة ، واجتمع عليه الشعراء المغمورون بالחסد ، وتعاون هؤلاء وأولئك على تعقب سقطاته وجحود فضله ؛ فكان من أثر الكتب التي أثرت من حوله ؛ والحركة الذهنية التي نشأت من شعره ؛ أن سار ذكره مسير الشمس وصار شعره سجل الخلود ؛ وغدا مدحه مطمح الملوك ؛ وأصبح أدبه وما اتصل به من النقود والشروح مكتبة !

★ ★

عقلية المتنبي عقلية بذوية خالصة تتعلق بالحس اكثر مما تتعلق بالمعنى ؛ وتعتد بالواقع اكثر مما تعتد بالخيال ، وتعتمد على القوة اكثر مما تعتمد على الحيلة . لذلك كان ذهول الصوفية نابيا في عقله ؛ وشعور الجمال خائبا في قلبه ؛ وأثر الدين ضعيفا في حياته . ثم كانت فلسفته حاجة الدنيا ؛ وخطته سنة الطبيعة ، وفكرته صورة الواقع ، وغايته غاية الرجل الطامح ؛ فشخصيته تبغي الظهور ؛ وشهوته ترغب المال ؛ وحيويته تطلب القلب ؛ وعظمته تريد الحكم . ومن ثم كان أخص ما يميزه بروز شخصه في شعره وصدق ايمانه برأيه ؛ وقوة اعتداده بنفسه ؛ وصحة تعبيره عن طبائع النفس ومشاعل الناس واغراض الحياة .

★ ★

عبقرية أبي الطيب سباحة الجناح لماحة الطرف مبسوطه الافق ، ولكنه قيدها بالمادة وحصرها فيما تدور عليه من كاذب المدح ولاذع الهجاء ، فقررت قرار الطائر الجببى : تخافت بالاغريد المزورة على طبيعتها ، وتكابد الشوق الملح الى الهواء والسماء والروض ، ثم تفلت أحيانا من ربة القيد فتخلق في سماء الالهام ، وتهتف بالمعجز من قلائد الحكم وشوارد الامثال وطرائف الذهن ، حتى في الاغراض المتبدلة والمواقف الوضيعة .

وهكذا كانت قوى المتنبي ومواهبه مقهورة معذبة . ولعله كان أقسى ما يكون على قريحته وعبقريته . فقد ارادها على الابداع في مدح لا يعتقده ، ووصف لا يحسه ، فجاءت معانيه في أمثال هذه الاغراض توليدا من عقله لا نقلا عن شعوره . ولهذا كثر فيها الاغراق لقيامها من الدعاوي المرسلة ، والغموض لاقتزاعها من الخوارج المبهمة ، والتناقض لتعيرها عن غير كائن ، والتشابه لتفصيلها على غير معين .

اما فيما يشعر به كالهجاء والعتاب والنقد والفخر والشكوى ، فسيل لا يحجزه سد ، وبحر لا يحصره ساحل . وحاله في تدفق الاسلوب وبعد الفور وسعة الافق ، كحاله في بطاء الحركة واختلاج الاداء وضيق الفكرة : شخصية مفروضة على الذهن ، وروح شعاعة على الاحساس ، وزيف في الارتفاع والاسفاف يذكر بجناح النسر .

والحق ان المتنبي شاعر القوة ، شاعر الحرب ، شاعر المغامرة ، شاعر المجد .

مصطفى كامل

كل شيء في مصر ينسى بعد حين كما قال شوقي ، وليست مصر بدعا من الامم في ذلك . فان الرجل او العمل لا ينطبع ذكره في الذهن الا اذا كان ندي الصوت قوي الاثر . ومصر في عهدها القريب انما كانت تجري في خلاء من التاريخ لا يكاد يظهر فيه الا فقاعة تنفجر او ومضة تنطفئ ، وليس لهذه او تلك من الاثر ما يملأ الشعور ويشغل الذاكرة .

على ان السائر في الصحراء مهما ضعف وعيه واشتدت غفلته لا بد ان يذكر المنار الذي دله على الطريق ، والواحة التي اعادته الى الحياة . وهيهات ان تعرض القلوب عن ذكر محمد علي ومصطفى كامل وسعد ! واذا جاز للزمن العاثر ان ينال من رجل الدولة او بطل الثورة ، فان مصطفى كاملا يظل على تراخي الحقب انوط بالقلب وأعلق بالذاكرة . ذلك لان زعامته كانت اشبه بالنبوة في تهيئة الفطرة وثبات العقيدة وعصمة النفس واختيار القدر . وهو الزعيم الوحيد الذي لم تلده الظروف ، ولم تبعته المطامع : لم تلده الظروف ، لان مصر كانت في ابان حادثته قد استأمنت الى الجهل والاحتلال فنامت في ظلهما نومة الضائع الابله .

انما ارسل المصطفى على فترة من رسل الوطنية . وكان ارهاصه وهو في المدرسة الثانوية ان الوزير علي مبارك باشا زار مدرسته يوما فسأله فيمن سأل من التلاميذ : ماذا اعتزم ان يعمل بعد الشهادة ؟ فاجابه مصطفى اليافع في خطاب طويل : « ان ارفع الرجال شأننا من يحرر بلاده . وسأكون انا ذلك المحرر الذي يكتب ويخطب حتى ترفع الاغلال عن عنق مصر » .

وكان ارهاصه وهو في مدرسة الحقوق ان انشأ مجلة سماها « المدرسة » اشرفت فيها نفسه الكريمة اشراق النفس الزعيمة . فتهاقت

على ضوءه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترسمون خطاه ، حتى نال اجازة الحقوق ففرغ لرسالته وخلص لوطنه . وحينئذ رأيناه يكتب الى امه الروحية مدام جوليت آدم يقول : « انني لا ازال صغيرا ، ولكن لي آمالا كبارا . اريد ان اوقظ في مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون ان وطني لا وجود له ، وانا اقول انه موجود بدليل ما اشعر له في نفسي من الحب الشديد الذي سيتغلب على كل حب سواه . سأنفق في سبيله كل قواي ، وأفديه بشبابي ، واجعل حياتي وقفا عليه ... »

ثم اضطربت في ذلك الجسد الناحل روح الله فقار فوره للجبارين ، وثبت ثبات الرسل ، وقام في وحدة النبي وايمان الشهيد يجاهد الاشرار بالوطن والكفران بالامة ، ويقارع بالحجج النائرة الملزمة طغيان المحتل ، وأمة هذا المحتل كانت يومئذ علة العلل ودولة الدول !

ومصطفى لم تبعثه المطامع ، لانه ادرك وهو في طرأة الشباب زعامة الامة وثقة العرش ورضى الخلافة وخصومة المحتل ، وكان في مقدوره اذا شاء ان يستغل هذه القوى العظيمة في سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد في ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقدوة والعبرة .

★ ★

لقد كان في مسامرة الخديوية ومياسرة الاحتلال ما شاء الطامع من جاه والقاب وسطوة وثروة . ولكن مصطفى كان يريد ان يقود لا ان يسود ، ويطلب ان يخدم لا ان يحكم . والزعيم الحق هو الذي يدافع عن امته ولا يحاول ان يحكمها ، لانه متى حكمها ادركته حقارة الانسان فاستطال وترفع وفاش وطاش حتى يصعب عليه ان يوفق بين رغائب نفسه وبين مطالب الناس !

وهكذا قضى الصدق في الجهاد والاخلاص للمبدأ على مصطفى العليل الواهن ان يحرك ساكن شعبه بوجيب قلبه ، ويذكي خمود جيله بحرارة دمه ، ويضيء ظلام وطنه بوميض روحه ثم يموت رضوان الله عليه

ميتة الانبياء ، لا (عمائر) تحجب سماء المدن ، ولا (دوائر) تشغل ارض
القرى •

عاش مصطفى كأصغرنا ؛ وسعى كأقدرنا ، ومات كأفقرنا فكان حقا
علينا ان نقيم تمثاله رمزا للوطنية التي لا تتاجر ، وللوطني الذي لا يداجي
وللزعيم الذي لا يخون •

جمال الدين الأفغاني

سر القوة في هذا الرجل انه كان صاحب رسالة لا طالب ملك هاجم السياسة الانكليزية في جريدة (العروة الوثقى) اعنف الهجوم واراده انسلطان عبدالحميد على مشيخة الاسلام فأبأها وقال : ان وظيفة العالم فيما يزاول على تعليم ، وان رتبته فيما يحسن من علم •

اما كيف تهيأت نفسه لرسالة البعث والتجديد على فترة من رسل الهدى وأئمة الاصلاح فجر فيها الحاكم وكفر المحكوم ، فذلك من علم الله الذي يصطفى من يشاء كما يشاء لنصرة حقه وهداية خلقه ، وكل ما نظنه معينا على هذا التهيؤ انه ولد في بيت كريم الاصل يجمع الى جلالة النسب الى الحسين ، سؤدد الامارة على بعض الاقاليم الافغانية ، وانه درج في بيئة تعتر بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأثفة ، وانه درس فيما بين الثالثة والثامنة عشرة من عمره علوم الدين والدنيا ، وفنون اللسان والعقل ، على منهاج محيط شامل ، وانه حذق في مراحل حياته او موطن رحلاته اللغات العربية والاردية والفارسية والتركية والفرنسية وألم بالانجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب في القديم والحديث ، وانه طوف ما شاء الله ان يطوف في اقطار الهند وايران والحجاز ومصر وتركيا وانجلترا وفرنسا وروسيا ، فازداد بصرا باحوال الدول واخلاق الشعوب ، وان موقع افغانستان بين الهند وايران أمكنه من ان يرى ميادين الاستعمار المدل المذل تتوالب عليها قوى الانجليز والروس ظاهرة وباطنة ، فهاله مذ شرب عدوان الاجنبي على استقلال أمته وجيرته •

كان رضي الله عنه متواضع النفس لانه عظيم ، جريء الصدر لانه حر ، ندي الراحة لانه زاهد ، ذرب اللسان لانه قرشي ، أبي الضيم لانه امير ، حاد الطبع لانه مرهف ، صريح القول لانه رجل ولم يبتغ من وراء هذه الصفات - كما قال - الا سكينه القلب ، وكان يحمد الله على ان آتاه من الشجاعة ما يعينه على ان يقول ما يعتقد ، ويفعل ما يقول ومن تمازج هذه السمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الارض ، وامتد امامه الافق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والعشيرة الى الوطن الاسلامي كله ، والشرق الانساني كله ، فجعل قصده ووكده ان يدعو الى انهاضهما بالوحدة الاسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحكومة الدستورية لتقمع شره المستبد .

وقد آمن بهذه الدعوة ايمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة .
والنفي سياحة ، والقتل شهادة .

وكان الذين يقفون من سيرة الافغاني على الهامش يظنون انه قصر جهده في تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذي لا شك فيه انه فكر ثم قدر ثم دبر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو في ريق شبابه لامير الافغان محمد اعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، وادار امره على الشورى ، فأوجس الانجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهبهم الى منافسه فاضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الامير ، وخرج السيد الى الهند يتغني السكينة عند تاجر صديق ، فاستقبله الانجليز على الحدود وانزلوه بالاكراه ضيفا على الحكومة . فسألهم الاقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا اقبال الناس عليه واصفاءهم الشديد اليه ، قصروا هذه المدة وامروه بالخروج . وكادت الاعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال للزعماء الهنود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو ان ملايينكم مسخت ذبابا لخرجت الانجليز بطنينها من الهند ، ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر الى الجزر

البريطانية لجذبها الى القاع » •

وفي الاستانة استقبله الصدر الاعظم استقبال التجلة ، وأحله اعيان الدولة محل الكرامة • ثم عين عضوا في مجلس المعارف ، فرأى في التعليم رأيا ، وخطب في الصناعة خطبة ، أحفظا عليه اعوان الجهل من رجال العلم واخوان الضلال من شيوخ الدين • وتولى قيادة الارجاف شيخ الاسلام لحاجة في نفسه ، فافتري على الرجل الابطيل ، وبس حواليه التمايم ، فلم يجد الافغاني بدا من النزوح الى القاهرة •

وهنا وجد الصدر الارحب ، فتجلت عبقريته في التعليم والتنبيه والتوجيه ، واوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة ، فعمشا على ضوءها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحكمة من علماء وادباء وساسة وقادة • ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي انشأه ، منارة لهدم الشعلة ، فقسم الاخوان العاملين فيه شعبا لكل وزارة من وزارات الدولة شعبة • وراع اولي الامر ما قرأوا في تقارير الشعب ، وما سمعوا من لفظ الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال : « ان سبيل الاصلاح ان يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى » • ثم ازداد جمال الدين امعانا في حملته ، وانقلب الادب كله اصدااء لاحاديثه وابواقا لدعوته ، حتى انتهى الامر — بعد جهاد ثماني سنوات — الى ان ضاق الانجليز بسعة نفوذه ، فزينوا للخديو ان يخرج من مصر فأخرجه •

وانتقلت الشعلة الى باريس ، وسطعت في جريدة (العروة الوثقى) ، وظلت الستة ثمانية عشر شهرا تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط ، حتى دلت على اوكار الطغيان ونمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزره ، فلما اشار عليه بالشورى اشاح بوجهه عنه • واستزاره قيصر الروس واستخيره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه • واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الامبراطورية الى عشر خديويات يتولاها امراء عثمانيون ، زوى عبد

الحميد ما بين عينيه ، ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع وظل على
أكرامه واحترامه اربع سنين حاول فيها ان يكبله بقيود المنصب والزواج
فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع ان يكبل الثائر الحر ليلفح الاستبداد
أجله المقدور !

وهكذا كانت حياة جمال الدين كلها جهادا مضنيا في سبيل الله والعلم
والحرية والشورى •

كان اينما حل تنفس الصبح واستيقظ الهجود ، واينما رحل ارتجفت
العروش واضطربت القيود • !

طيب الله ذكرى هذا الامام العظيم ، واجزل له ثواب المصلحين
المخلصين في جنات النعيم !

الشيخ محمد عبدو

« عجب عجيب ! شيخ يلبس حلة مقطوعة الكم ، ضيقة الرदन ، مبنقة الجيب^(١) ، ويعتم على طربوثل ، ويتنعل حذاء كأحذية الفرنجة ، ثم يتكلم الفرنسية ، ويصاحب الخواجات ، ويفشى بلاد الفكر وترجم كتب اوربا ، يأخذ عن جمال الدين ، ويدرس ، ويريد ان يدخل في الازهر علوم المدارس ، ويشغل بالادب ، وينشئ المقالات للصحف ، ويسوغ لبس القبعة ، ويجيز الربا في صناديق التوفير ، ويحاول الاجتهاد ، ويفسر القرآن على غير طريقة السلف ١٠٠ !

نعوذ بالله من المحنة ، وعواقب هذه الفتنة ، ونسأله ان يقيضها على منهج السنة وعقيدة الجماعة ... »

هكذا كان يقول جمهور « العلماء » في صحن الازهر حين انبلج نور الاصلاح من جبين محمد عبده ، كما كان يقول مشركو قریش في فناء الكعبة حين انبثق نور الهدى من غرة محمد رسول الله ! انظروا كيف يريد ان يبدل نظام الكون ويغير خلق الله ! وكذلك دعوة الاصلاح باغتت الازهر على سكون كذهول البله ، وخمود كغشية الموت ، واستغرق كخدر الافيون ، من طول ما تنكرت له الاحداث ؛ وطفئت عليه البدع ، وعاثت فيه الجهالة ، فلما نبههم الامام محمد عبده الى ان الدين للدنيا وان العلم للعمل والعلماء انما يخلفون الانبياء ليظل اثر الدعوة شديدا وجبل الدين جديدا وخلافة الله قائمة ، فتحوا اعينهم على رجل يخالف سبته سمت البيئة ، ويباين زيه زي القوم ، ويناقض رأيه رأي الحلقة ، فاستوحشوا من ناحيته وانكروه ، ثم قالوا : معتزلي مبتدع !

(١) بنق القميص : جعل له بنيقة ياقة .

قال الاستاذ الامام وهو ينقض باسم ما حتوه على عظيمه من الفنون
والتهم : لا صلاح للدين الا بصلاح الازهر . ولا قیامة للدنيا الا بقيامة
اهله ! ثم استعان على خصومه بالاحسان والنصيحة والصبر حتى آمن
من آمن وهادن من هادن ، فوضع يمينه في ايديهم ، ويسراه في ايدي
اولئك الذين فتنهم الغرب فأنفضوا رءوسهم الى مدينة الاسلام ، وزووا
وجوههم عن ثقافة الغرب ، يخاول ان يصل بين الثقافتين ، ويوفق بين
العقليتين ، ويجعل من هؤلاء وهؤلاء وحدة متسقة الفكر ، متفقة الهوى ،
متحدة الغرض ، تؤلف بين الدين والعلم ، وتقرب بين الشرق والغرب ،
وتصل بين الماضي والحاضر . فنجح على قدر ما ينجح الانبياء والمصلحون
في ابان الدعوة ، يهثون الارض في رجف من الخصومة ، ويبدرون البذر
في عصف من المعارضة ، ثم ينفثون في اشياهم القليلين المخلصين ارواحهم
الخالقة وقواهم الخارقة ، ليكونوا من بعدهم اوصياء على الغراس وشهداء
على الناس وادلاء على المحجة .



لا ريب ان الامام محمدا كان من اولئك الاعلام المصطفين الذين
يوضح الله بهم طريق الانسانية من قرن الى قرن . واخص ما تميزهم به
الطبيعة متانة الخلق ، وصلابة الرجولة ، وشدة الاسر ، وقوة الحيوية ،
وحدة الذهن ، وصفاء الملكة . ورث عن ابيه وثاقة التركيب وشجاعة
القلب ، وشب نايبا عن الضعف ، آبيا على السكون . يريد ابوه ان يكون
زارعا كاخوته في الحقل ! ويرسله ابوه الى المعهد الاحمدي يطلب العلم ،
فيفر منه الى مدارج السبل يطلب الفلاحة ! لان حفظة القرآن وحملة الفقه
كانوا موضع العطف من القلوب لقلّة الكسب وضعف الحيلة ، وحيويته
تأبى القيود ، ورجولته تعاف الشفقة .

ثم لجأ الى الشيخ درويش خال ابيه ، وهو صوفي عالم من اجل
اهل البحيرة سار في الارض حتى بلغ طرابلس الغرب ، فأخذ الشريعة
والطريقة على السيد محمد المدني . والتصوف في الغرب يقوم على ذكر

الله بالاستحضار ، وتلاوة القرآن بالاستذكار ، ورياضة النفس بالتأمل
فأخذ يروض جموح طبعه بالصلاة ، ويلطف حميا شبابه بالذكر ، ويطفىء
غليل قلبه بالدرس ، حتى فتح السبيل بين نفسه وبين الوجود الابدي
والكمال المطلق .

ثم اتصل بالسيد جمال الدين الافغاني فتولى عقله يشقه بالمنطق
ويكمله بالحكمة ويقويه بالملاحظة ، فكان لهؤلاء الثلاثة : أيه مربى جسمه ،
وشيوخه مربى روحه ، واستاذه مربى عقله . أبلغ الاثر في تكوين صفاته
وتوجيه حياته وتبليغ رسالته .

وظهرت مقالاته في (الاهرام) وهو لا يزال في صدر الطلب تحمل
دعوة هذا العقل المتجدد المتمرد الى العلوم العقلية والمعارف العصرية
والادب المنتج . ثم تولى رئاسة المطبوعات وتحرير الجريدة الرسمية فثار
على الاساليب الكتابية في الدواوين ، والتقاليد الادارية في الحكم ، والبدع
النافسية في الدين ، والعادات المنكرة في المجتمع ، وكانت مقالاته دستورا
للغة ونظاما للكتابة ومنهجا للفضيلة ، قام على نفاذها سلطان من شجاعته
وقوة من نفوذه .

ثم شايع العربيين في الغضبة المصرية الاولى مشايمة البصير الحازم ،
فأعقبته النفي الى سورية . وهناك ذله ذلك الشعور النبوي فيه على ما جره
سوء سياسة السلطان العثماني من انفراج الحال بين الاديان ، وجفاف
الثرى بين الاخوان ، فوضع دستورا لاصلاح التعليم الديني قدمه الى
شيخ الاسلام ، ومشروعا لاصلاح القطر السوري قدمه الى والي بيروت .
ولو اخذت بهما الحكومة العثمانية لكان شأنها غير ذلك الشأن ، وعاقبتها
غير هذه العاقبة .

ثم اتسع افق تفكيره ، وانفسح مدى نظره ، فراعه حال المسلمين من
قناعتهم بالدون ، واستنابتهم الى الهون ، وقعودهم عن مسيرة التمدن ،
فوافى السيد الافغاني الى باريس ، ودعا في مجلة (العروة الوثقى) أشتات
الامة الى الوحدة ، واموات الجهالة الى البعث واسرى العبودية الى
التحرر .

ثم ولوه بعد العفو عنه القضاء ، فلام بين الاحكام المدنية والدينية •
وساوى في النظام بين المحاكم الاهلية والشرعية ، وارتجل لهذه من الاصلاح
ما حقق من وجودها النفع ؛ وجدد في قضائها الثقة ، وضمن لقضاها
التنفيذ !

ثم عاد فحصر اصلاحه الداخلي والخارجي والديني والمدني في اصلاح
الازهر لانه منشأ الدعاة والهداة واتقضاة والمعلمين في مصر وفي غير مصر •
فإذا قلبه على الوضع الذي يريد فقد وضع المكواة على اصل العلة ،
واختصر الطريق الى بلوغ الغاية • ولكن ابا لهب واشياعه في الازهر وفي
قصر الخديوي ارادوا - وأسفاه - ان يطفئوا بأفواههم نور الله ، فأطفأوا
بكيدهم سراج حياته ؟

ايقظ همه للاسلام ف قرب عقائده من الافهام ، وقطع عنه السنة
المبشرين والمستعمرين بالادلة النواهض والحجج الملزمة ، وجعل عزمه
للقرآن ففاز منه برياض موقنة واعلام بينة ، فبراهين قضاياه من قواعده ،
وبيئات دعاواه من شواهده ، ومضامين عبقرياته من هديه ، وافانين بلاغاته
من وحيه ، وعناوين مقالاته من آيه ، فكأنه رسول الرسول ظهر في عصر
العلم الشاك والمدنية الملحدة ليكشف عما غيب الله من نور الكتاب وسره ؟

★ ★

كان الامام محمد عبقرية نائرة ناقدة ، لا تعرف القيود ولا الحدود
ولا السطحية ، ولكنها انحصرت بحكم الظروف في الاصلاح الديني ،
فوقفت بين الدين الذي تأخر والعلم الذي تقدم ، موقف ابن رشد وابن
سينا من قبل : تحاول التأليف بين القلب والعقل ، والتوفيق بين الرأي
والنقل ، فذهب اكثر جهده باطلا بين الجامدين الذين يرون في تجديد الدين
بالعلم بدعة ، وبين المسرفين الذين يرون في تقييد العلم بالدين رجعية
فلو انه عالج الاصلاح الاجتماعى من طريق العلم ، او السياسي من طريق
الحكم ، لدفع الامة الى الامام قرنا على الاقل •

وبعد ، فان في ساحة الازهر الجديد ينبغي ان ينتصب التمثال العتيد
لمجدد الاسلام •

محمد حافظ ابراهيم

كان عمر حافظ ابراهيم سنتين حين توفي ابوه فقيرا في (ديروط) ،
فنشأ في مهد اليتيم والعدم لا يجد حانيا غير امه ولا كافيا غير خاله ، فجاز
مرحلة التعليم الابتدائي في ضيق وشدة • ثم قضى بضع سنين في طنطا
متبطلا يزجى فراغه بالقراءة ويدفع ملاله بالقريض • ولم يستطع خاله لسبب
ما ان يجلو عنه غمة البائس وذلة اليتيم ، فكان لا يفتأ متبرما بالعيش ،
متأففا من الناس ، متجنيا على القدر ، لا ينشئ الشعر الا في ذلك • ثم
دفعته الحاجة الى مكتب المحامين - وكانت يومئذ مفتحة الابواب لكل
داخل فتبلغ^(١) بالعمل فيها حينا ، حتى اسعفته الفرص فدخل المدرسة
الجربية ، وهي مطمح بصره وحديثه امانيه • ثم خرج منها ضابطا الى
السودان ليشهد صلف الانجليز وضراعة المصريين ، فيثور مع اخوانه
الضباط على جور المحتل وفضول الدخيل ، فينفى فيمن نفى من السودان
والجيش •

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة النائية المهمة ، لا يستريض
لعمل ولا يستقر على امر ولا يتشوف الى غاية ، لان طفولته الشاردة
المهملة طبعته على الكسل والملل والتشاؤم والوحشة ، ولان عقيدته التقليدية
الخاطئة بأن الشعر وحده يشغل الحياة ويبسط الرزق ويكسب الحقوق ،
أحيتها على نمط مسلم بن الوليد وابي نواس واضرابها ممن عاشوا صنائع
للملوك وحمائل على الجوائر ووسائل للهو ، فأبى الوظيفة وهي على جبل
ذراعه ، وآثر ان يعيش في ظلال الامام محمد عبده ينتفع بجاهه ، ويفيء

(١) تبلغ بالعمل : عاش فيه عيشة الكفاف •

انى رفته ، ويفشى مع ذلك ابهاء النعمة يسامر اهلها بعذب حديثه، وينادهم
برقيق شعره ، ثم يتطلع الحين بعد الحين الى صلات القصر فيحجبه عنها
شوقي شاعر الامير بحوله وطوله •

ومن دأب الشعراء المتكسين بالشعر ان يذروا الى حد السفه
اذا عاشوا للحاضر كصرع الغواني وابن هانيء ، وان يقتصروا الى حد
الكزازة اذا عاشوا للمستقبل كأبي العتاهية والبحري ، ومن الاولين كان
حافظ •

تمتلىء يده بالمال اليوم فتعتريه حال من البرم والقلق لا تنفك عنه
حتى يتلفه كله قبل الغد على اخوانه الكثيرين من طرائد البؤس وصرعى
الادب ، ثم يطارحهم بعد ذلك على مقاعد القهوة الشعر الباكي في لؤم
الزمان وظلم الانسان وشقاء الاديب !

قطع حافظ مراحل عمره على هذا المنهج البوهيمي لا يدخل في نظام ،
ولا يصبر على جهد ، ولا يرغب في عمل ، ولا يطمئن الى تبعه ، وانما
يضطرب نهاره من قهوة الى قهوة ، ويتقلب ليله من مجلس الى مجلس •
واينما يكن يكن الانس الشامل والظرف الناصع والادب الغض والحديث
المشفق الذي يمتزج بالروح ويفمر بالنشوة جوانب النفس •

تقوضت اسرة حافظ وهو في المهد ، فشب وحشي الطباع معري
الغريزة لا يتضح في نفسه معنى المنزل ، ولا يجري في حسه شعور الاسرة
ثم وقفت به قناعته الشاعرة عند الحد القريب من معالجة الاديب ، فقصر
جهد على صوغ الشعر في المناسبات ، وجمع النوادر للسمر ، حتى بلغ من
ذلك مكانا لا يتعلق به درك ، ولكنه حين اريد على ترجمة البؤساء وكتاب
الاخلاق ووكالة دار الكتب ، ادركته علة النشأة فقدمت به عن التمام
وخذلت عن الاجادة وشلت عن العمل •

★ ★

كان حافظ في ميعه شبابه يطلب الثروة على قدر طموحه ، والحظوة على قدر نبوغه . ولكنه طلبهما من طريق الحق الذي يدعيه كل شاعر على الناس ، لا من طريق الواجب الذي يؤديه كل انسان الى المجتمع . فلما اخفق بالطبع لم يرد ان يعيش كما يعيش سائر الناس على العمل الميسور ، وانما ارتد ارتداد الانوف المحتج الى الفلاكة الشاعرة الصابرة ، يحمل بؤسه على « حرفة الادب » كما يحمل المؤمن رزءه على حكمة القدر . ثم عاش عيش الطائر الفريد : عمره ساعته ، ودنياه روضته وشريعته طبيعته ، ودأبه ان يطير في الغيم والصحو ، ويشدو في الطرب والشجو ، ثم يسقط على الحب اينما انتثر !

ولقد كان من جريرة هذه الحياة النابية العقيم ان قتلت فيه الطموح فلم ينشط الى سعي ، واذهلته عن الغاية فلم يسر على مبدأ ، ووقتته على الشاطئ فلم يتعمق في فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكامل بثقافة . كان مبدؤه الادبي مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة رأى الآمال تتهافت حيناً من الدهر على اريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الاستانة ، فجرى لسانه بالشعر المطبوع في مدح الخديو عباس وتمجيد الخليفة عبد الحميد . ثم اتصل بالامام محمد عبده وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الامة ، ولهم يومئذ في الانجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه في هذه الفترة قصيدة في رثاء الملكة فيكتوريا ، وقصيدة في تتويج الملك ادوار السابع ، وقصيدتان في وداع اللورد كرومر عبر بهما عن الرأي السياسي الاستقراطي في ذلك الحين . ثم خلص للشعب ، فلابس دهماءه وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة الى نواء مصطفى كامل ، فمزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على اوتار القلوب اناشيد الجهاد ، ونظم امانى الشباب من حبات قلبه ، وترجم احاديث النفوس ببيان شعره . ثم عطف عليه الوزير الاديب حشمت باشا فأكرمه بالعمل في (دار الكتب) ، واجزل له الوظيفة طمعا في مواهبه وثوابا على فضله . ولكن الشاعر حمل الوظيفة على باب المكافأة المفروضة ، فاستراح

للخفض ، واستنم للدعة ، وفتر عن قول الشعر الا مدفوعا اليه من فترة الى فترة . فلما خرج على المعاش انضوى الى اعلام (الوفد) ، واتصل بالزعيم سعد اتصال النديم ، وحاول ان يبعث في نفسه الشعر الوطني ولكنه كان قد اصفى^(١) . . .



كان شعر حافظ فيض الشعور وعفو البديهة ، ينشأ في الكثير الغالب من آراء المجالس واقوال الصحف ومخزون الحافظة ، فلم تمنه حياته على التروية ، ولم يدعه اضطرابه الى التأمل ، ولم تطلقه قيوده الى الطبيعة ، وانما ظل صنعة لوعي البيئة والهام الفطرة وتوجيه المناسبة ، فهو في قصائده . للامام يذكر تعلق الناس بالباطيل ، وتهالكهم على عبادة الموتى ، ولا يزيد في ذلك على نقد الامام ونعيمه . وفي قصائده لقاسم امين يذكر الحجاب والسفور بما لا يخرج عن مذهبه ورأيه . وفي قصيدته التي انشدها في احتفال مدرسة البنات ببور سعيد يتكلم في تعليم الام وسفور المرأة وغيوب الجماعة مما لا جديد فيه . وفي قصائده التي نظمها في مشروعات الجامعة المصرية الاهلية وافتتاحها يجمل ما فصلت الصحف من الموازنة بين الاكثار من الكتابات وانشاء الجامعة . وفي رثائه لتولستوي يذكر السلم والحرب والخير والشر والغنى والفقر بما لا يبعد عن تناول الناس ولا يرتفع عن مستوى الجمهور . من اجل ذلك كان فكره مستقيما لا ينحرف ، وواضحا لا يلتبس ، وسديدا لا يطيش . والسرف فيه اعتماده على قوة الاجماع ، لا على غرابة الابداع . . .

وكانت ثقافة حافظ ثقافة الشاعر العربي الاول يتزود لمجالس الملوك بالاخبار والطرف ، ولمحافل الادباء بالاشعار واللغة ، ويستعين على ذلك بسلامة الذوق ، وصفاء الطبع ، وقوة الحافظة ، وكثرة الاطلاع ، وجودة الاستماع ، والحاح الحاجة . ولحافظ في كل اولئك موضع منفرد ومكان بارز !

(١) اصفى الشاعر : انقطع شعره .

عكف منذ شب على دواوين الشعراء واجزاء (الاغاني) يتنخلها
ويتمثلها ويعاود النظر فيها ، ويستكمل الحظ منها ، حتى بلغ من مختار
الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الاخرى
بنتف من المسائل الاولى ، ينقلها عن السماع يأخذها عن الصحف اذا ظن
انها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الاسماء وصوغ القريض ،
حتى لغته الفرنسية ظلت بكما فلم يتقنها ولم يستفد منها لا بالقراءة ، ولا
بالترجمة . وثقافة الشاعر المدني المجد ثقافة محيطة شاملة ، تشارك في
ضروب المعرفة مشاركة بصيرة ، وتتابع تقدم الفكر متابعة حرة .



اما صياغة حافظ فهي موهبته الاولى ومزيتة الظاهرة . وهو في ذلك
ثاني الخمسة^(١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على
صنعتهم بلاغة القصيدة . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعا بالصدق في تعبيره
عن هموم قلبه ، وتفسيره لاماني شعبه ، وتصويره لمساوي عصره .

(١) الباروي وحافظ وشوقي وصبري ومطران .

أحمد شوقي

اجتمع رأي المعاصرين — ما عدا الشعراء — على ان شوقي طيب الله ذكره ، كان تعويضا عادلا عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الادب ، ويحفظ للبيان العربي قسطه المأثور من التعبير الملهم عن كلمة الله المنبئة في الكون ، واسرار الجمال المضمرة في الطبيعة ومعاني الخير الغامضة في الحياة . واجمعوا على ان فقدته كان فقدا للوجدان الفني في الشعب الذي علمه كيف يتذوق الادب ويستسيع الشعر وينضج عواطفه انجافة بفيض هذه القريحة النابغة الثرية . فالاعوام تعقب الاعوام ، والذكرى تخلف الذكرى ، والاسى لا يزال يرمض الجوانح لامتناع الصبر عليه واعواز العوض منه . وسيبقى شوقي كما وضعه القدر كمالا في نقص كان ، وهيهات ان يصير قصا في كمال سيكون . وسيدور الفلك ويدور ، ويقصد النقد ويجور ، ويتطور الذوق ويسمو ، وشعر شوقي ثابت ما ثبت الحق ، خالد ما خلد القرآن ، مقروء ما بقي العرب .

ذلك لان الطبيعة اختارته لرسالة الشعر بعد فترة مؤسفة من الرسل ، ثم آثرته بالنصيب الاوفى من الفكر والخيال والعاطفة ، وهن الملكات الثلاث التي ترفد القريحة وتمد الطبع . وعلى تفاوتها في القوة والضعف يتفاوت الفنان في السبق والتخلف . ثم زودته بالاذن الموسيقية والقريحة انسجية والاداة الطيبة ، فشب عبقريا بالفطرة لا شأن للبيئة في تنشئته ولا للمدرسة في اعداده ولا للفرصة في توجيهه ، وهل كان أثر البيئة وقفا عليه ، وتعليم المدرسة خاصا به ، ومواتاة الفرص امتياز له ؟ انما كان مثله في رسالة الشعر كمثل الانبياء في رسالة الدين ، يختارهم الله من الضعفاء

والفقراء والاميين ليكون جلاله عليهم ابر ، ومعجزته فيهم اظهر ، وحجته منهم ابلغ .

وشوقي رجل روحه اقوى من فنه ، وشعره اوسع من علمه ، وحكمته امتن من خلقه ، وقدرته اكبر من استمداده ، فلا يشك قارئه في انه وسيط لروح خفيه تقوده ، ورسول لقوة الهية تلهمه . وما اكتسب من القراءة والاسفار الا ارهاف الذوق وتحصيل المادة وتوسيع الخبرة . والذوق في الفن كالعقل في العلم انما يحصلان بالدرس والتجربة والسن . والطبيعة تصنع صاحب العبقرية ، ولكنها تبدأ صاحب الذوق .



الشاعر المطبوع رجل يتأثر خياله بقوة ، وينفعل قلبه بسرعة ، ثم يكون بين خياله وقلبه تجاوب سريع مستمر ، له اذن مرهفة الحس تطفن للايقاع وتطرب للنغم ، وذوق سليم الادراك يعرف جمال الشعر ويعلم مواقع الكلم ، ونفس ترى المثل الروائع فتحمى وتتحمس . ثم يدفعها السمو الفني فيها الى المنافسة الحرة والمعارضة النبيلة . واذا تناول الفكرة الاساسية الاولى لموضوع ما ، لا يلبث ان يراها في دخيلة نفسه تنمو وتتسع وتركب وتشعب وتتلون ، ثم تغدو ولودا خصبة . ثم لا ينفك شاعرا بالحاجة الملحة الى الانتاج الناشئ عن غزارة الفيض وحرارة العاطفة . ثم يدرك في يسر ما بين المعاني المجردة والمواد المحسة من علاقة ، فيتخذ من هذه الوانا لتلك ، بحيث تولد هذه الافكار في الذهن مكسوة بهذه الصور . تتمثل في خاطره المواد من ذات نفسها على الوجه الانسب للتصوير ، والوضع الاجمل في النظم . فاذا كان الموضوع مؤثرا اثالت عليه العواطف معجلة تريد ان تظهر ، مزدحمة تحاول ان تفيض .

ذلك هو الشاعر المطبوع وذلك هو شوقي . علمناه بالدرس وعرفناه بانصحة فما انزل يوما في تحليله واسفاقه عن مواقف العبقرية واذا كان في شعر شبابه مأسور الفكر محصور الخيال محدود النظر ، لا يعبر الا عن رأي القصر ، ولا يصور الا بالوان البيئة ، فقد كانت هذه الحقبة الرسمية

غية للشاعر عن نفسه ، وذهولا منه عن وجوده • وقديما كانت صلات الشعراء بالملوك والخلفاء عاهة الشعر وآفة العبقرية • فلما اعتقته الحرب الكبرى من رق الوظيفة ، واطلقت انجلترا بالنفي الى الاندلس ، تيقظ فيه انرسول الشاعر والحكيم المصلح ، فخلق بخياله في كل جو ، وسطح بعقله في كل افق ، وشدا بالاسلام والعروبة والمصرية شدوا رده كل لسان واهتز له كل قلب ، ثم زاد في القيثاره العربية الاوتار الناقصة ، فأضاف اشعر القصصي والشعر التمثيلي الى شعرنا الغنائي ، فكان بذلك وحده الشاعر الكامل !

شوقي كان كله من صنيع الطبيعة • ولد منشدا كما ولد البلبل مفردا • فالحكم على شعره بقوانين النقد الوضعية ، وآراء الناقدين الشخصية ، لا يضعه في مكانه ولا يزنه بميزانه • اقرأه ثم راجع فيه نفسك ، واستشر في اثره فيك حسك • فاذا وجدت ذهنك يشتغل ، وشعورك يشتعل ، وروحك تتصل بروحه ، وذوقك يرتاح لذوقه ، فتشق انك بازاء شاعر علت مزاياه على النقد ، وسخرت مواهبه بالقيود •

مصطفى لطفى المنفلوطي

• كان في مستهل هذا العصر نفر من الايفاع الخلاء يتنقلون بين حلق الازهر كما تنتقل النحل بين الروض ، لا يتشمون غير الزهر ولا يتذوقون غير الرحيق • وكانوا كالفراش رقاق الجسوم خفاف الاجنحة يتهافتون على اضواء النوابع المعاصرين اينما تشع • وكانت الومضات الروحية الاخيرة للبارودي واليازجي ومحمد عبده وقاسم امين ومصطفى كامل قد التمعت التماع الموت لتنطفئ كلها متعاقبة في العقد الاول من عقود هذا القرن • فهيأت الانفس والاذواق الى ادب جديد كنا نفقده فلا نجده •

وحيث اشرق اسلوب المنفلوطي اشراق الباشاة وسطع في اندية الادب سطوع العبير ، ورن في سماع الادباء رنين النغم • ورأى القراء الادباء في هذا الفن الجديد ما لم يروا في فقرات الجاحظ وسجعات البديع ، وما لا يرون في غثاثة الصحافة وركاكة الترجمة ، فأقبلوا عليه اقبال الهيم على المورد الوحيد العذب •

كان المنفلوطي قطعة موسيقية في ظاهره وباطنه ، فهو مؤلف الخلق ، متلائم الذوق ، متناسق الفكر ، متسق الاسلوب ، منسجم الزم ، لا تلمح في قوله ولا في فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز القدامة • كان صحيح الفهم في بطنه ، سليم الفكر في جهده ، دقيق الحس في سكونه ، هبوب اللسان في تحفظه • وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس في مظهر العبي الجاهل ، فهو لذلك كان يتقي المجالس ويتجنب الجدل ويكره الخطابة • ولكنك اذا جلست اليه رأسا الى رأس ، تسرح في كلامه وتباري لسانه وخاطره في النقد الصريح والرأي الناضج والحكم الموفق والتهكم البارع ، فلا تشك

في ان هذا الذي تحدثه هو المنفلوطي الذي تقرأه • ثم هو الى ذلك رقيق القلب ، عف الضمير ، سليم الصدر صحيح العقيدة ، نفاح اليد موزع العقل والفضل والهوى بين اسرته ووطنيته وانسانيته •



عالج المنفلوطي الاقصوصة اول الناس وبلغ في اجادتها شأوا لا ينتظر من نشأة كنشأته في بيئة كبيئته • واذكر اثنا كذا تقرأ (غرفة الاحزان) و (اليتيم) وامثالهما فنطرب للقصة على سذاجتها ، اكثر مما نطرب للاسلوب على روعته • وسر الذبوع في ادب المنفلوطي ظهوره على فترة من الادب اللباب ، ومفاجأته الناس بهذا القصص الرائع الذي يصف الالم ويمثل العيوب ، في اسلوب طلي وسياق مطرد ولفظ مختار • اما صفة الخلود فيه فيمنع من تحقيقها ضيق ثقافته لانه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالا مباشرا بعلوم الغرب • لذلك تلمح في تفكيره السطحية والسذاجة • فاذا قدر الله لادب المنفلوطي ان يفقد سحره وخطره في اطوار المستقبل ، فان تاريخ الادب الحديث سيقصر عليه فصلا من فصوله يجعله في النثر كالبارودي في الشعر ، وكفى بذلك عنوان فضل وخلود ذكر •

مي زيادة

ولدت « مي » وعاشت ثم ماتت كما يولد النهر من قطر السماء ،
فتربيه الطبيعة في الينابيع الهادئة الفسيحة ، ثم تبعته برسالة الحياة الى
حوضه ، فيشق بالجهد والصبر طريقه الموحش في صخور الجبل وقفار
الارض واصول الغاب ، ثم يلقي على شاطئ الوادي ما حمل من فضل
الله ، فيحيا الموات ، وتتجمع الخيرات ، وتنشأ الحضارات ، وتتألف الملاحم
ويتكلم التاريخ ، ثم يأخذ النهر مجراه بين الحقول الناضرة والمدن العامرة
شاديا بالمال والجمال والحب حتى يذهب في عباب البحر كما تذهب الروح
الطيبة في فضاء اللانهاية !

لن تجد « لمي » في حياتها وموتها اقرب من هذا التشبيه ، فقد كانت
في خلال ما غشى الشرق من الهمود والظلام قبسا من الحياة من يمسسه
وهيجته وسناه انتعش ما همد منه ، واستنار ما اظلم فيه .



ابصرت « ماري زيادة » الدنيا اول مرة في « الناصرة » بلد المسيح ،
ومن هنا استوحى ابوها اسمها الاول على ما اظن ؛ ثم ارسلت الى منبت
اسرتها في قضاء كسروان بלבnan ، فثقت طفولتها قليلا في « عين طورة »
ثم هاجرت الى مصر مع والديها ، فتفتح صباها الغض على ماء النيل ،
وتفتق ذهنها الصافي على نسيم الوادي . وكان والدها الياس يحترف
الصحافة ، فكان لها من عمل ابيها ، ومن اصالة الملكة فيها ، حافز سديد
التوجيه الى الادب . ولكن ادبها على الرغم من نشوئه وبلوغه ونبوغه في
القاهرة لم يتأثر بأدب مصر ، وانما تأثر في شكله وموضوعه بأدب لبنان .

لان الادب اللبناني كان وحده في اواخر القرن الماضي واوائل القرن الحاضر
مظهر الحياة والجدة والتنوع في الادب العربي الحديث . فبينما كان الادب
المصري يصدر عن الازهر ، والادب العراقي يصدر عن النجف ، والادب
السوري يجري على اسلوب هذين الاديين ، كان الادب اللبناني يصدر عن
مدارس تتسم بسمة الدين ، ولكنها تعترف بوجود الدنيا ، فهي تعلم العلوم
الحديثة ، وتلقن اللغات الحية ، وتعتمد في ادب القلب على الانجيل ، وادب
اللسان على القرآن ، فبيضت الكتب الصفراء^(١) ، ورتبت المعاجم المشوشة ،
ونشرت الكتب المقبورة ، ولقحت الآداب العربية بالاداب الاوربية ، وكان
من اثر هذا اللقاح النقد والترجمة والصحافة والتمثيل والقصص وكان
من ثمر هذا اللقاح طلائع هذه النهضة من آل اليازجي والبستاني والشرتوني
وزيدان وصروف وشميل والريحاني وجبران ومطران . وكان لا بد للماري
انعرية ان تجني ثمر الثقافة مما غرس الفرنسي سكان والامريكان والمارون ،
وان تقتبس نور العروبة من الضياء والهلال والمقتطف ، وان تناجي عنادلنا
الفردة في رياض مصر وخمائل لبنان ومنازه الدنيا الجديدة ، وان يحملها
الاعتداد بجنسها ولغتها على ان تقتصر من اسمها الاعجمي على طرفيه
ليكون اسمها العربي (مي) . وعلى هذا المنهج بلغت مي غايتها من الادب
والعلم والفن ، فاستفاض ذكرها على الالسنه ، وعظمت مكاتبتها في الافئدة ،
ووصلت بينها وبين كثير من اولي الفكر والجاه اسباب من الروح ، فكان
صالونها في ايام الثلاثاوات كصالون الولادة بنت المستكفي منتجع الصفوة
من اقطاب السياسة واعيان الادب ، يعكفون على اصدق مثال للاناقة
واللباقة والذوق في فتاة بازعة الظرف ، تشارك في كل علم ، وتفيض في كل
حديث ، وتختصر للجليس سعادة العمر كله في لقطة او لمحة او ابتسامة !

لقد كان لمي وصالون مي في ادب العصر آثار وسمات : الهمت
اسماعيل صبري ، واوهمت الرافي ، والهبت جبران ، ثم اخرجت من سواد
المداد صوراً مختلفة الالوان متنوعة الافئدة اضافت الى ذخائر الفكر

(١) كتب الازهر المعقدة

لانساني ثروة •

ثم تقدم العصر وطوت (مي) اكثر مراحل الشباب ، فتنكر الدهر
وتغير الناس • وورد ابواها متعاقبين حياض المنون فاستكانت للحزن ،
واخلدت الى الوحدة ، فانفض السامر الانيس ، وانطفأ السراج اللامع ،
وانحدرت (مي) في طريق الوحشة والمرض والنسيان الى نهايتها الاليمة !



اما بعد فقد قال بشار لبعض جلسائه ذات يوم : ما سمعت شعر امرأة
قط الا احسبت فيه الضعف ! فقليل له : او كذلك الخنساء ؟ فقال في لهجة
الفطن المحترس : تلك فوق الرجال !

ونحن نقول في مي ما قال بشار في الخنساء ، ونزيد عليه ان مي هي
الادبية الكاملة في تاريخ الادب العربي كله !

معروف الرصافي

لفظ معروف الرصافي انفاسه الاخيرة في حجرة مظلمة مقرورة لا يلفظ جهومتها نور ولا نار ، ولا يخفف وحشتها خليط ولا جار ، ولم تقع عينه الشاخصة وهو في نزاع الروح الا على ورقة هنا وكتاب هناك ، او على خادمه الامين يتماسك لحظة ويتهالك اخرى والدنيا التي صحبها الشاعر سبعين عاما يدل على جمالها العيون ، ويغري بمتاعها الافئدة ، لم تجد عليه ساعة الوداع بيد رفيقه تغمض عينيه ، ولا بعين حبيبته تذرف دمعة عليه !

كان الرصافي - احسن الله اليه - لسان العراق الصادق ، ينقل عن شعوره ويترجم عن امانيه ، ويحدو لركبه المجاهد في سبيل استقلاله وعزته بالحدااء الحماسي المطرب ، ويصور خلجات نفسه ووساوس احلامه بالشعر الصريح المعجب : وظل هو والزهاوي وشوقي وحافظ ومطران حقبة من الدهر يؤلفون الاوتار الخمسة لقيثارة الشعر العربي الخالص ، ولكل وتر درجته في الرنين والجهاارة والاثر .

والرصافي اشبه بحافظ من الزهاوي بشوقي ، وان شئت فقل ان الرصافي وحافظا كانا الوترين الرابع والخامس في القيثارة : صوت عريض ضخم ، وذذبذة ضيقة محدودة .

كان هذان الشاعران يتشابهان في اسلوب العيش واسلوب الفكر . كانا صدى لهتاف الجمهور في السياسة والاجتماع ، ورجعا لانيين المساكين في الالم والشكوى ، وكانا يتقاربان في جوانب من ضيق الثقافة وقلة الاطلاع وبوهيمية الحياة . ولكن الرصافي كان متميزا على نظرائه جميعا

بالصراحه الجريئة والاستهتار البالغ • كان يعيش ليومه وينطلق على هواه
ويستجيب لرغيزته ، فيفعل ما يشاء ، ويقول ما يعتقد ويطلب ما يشتهي ، ثم
لا يبالي ان يقع ذلك كله من رأي غيره • ولا مراة في ان لهذه الحرية
المطلقة اصلا في مولده ونشأته • كان ابوه من بدو الكرد ، وامه من بدو
العرب • وكانا فقيرين فولداه ببغداد في مهد بدوي خشن • ثم نشأه على
اخلاق البادية الاصيله • ثم ارخيا له الجبل وتركاه يغدو ويروح على مقتضى
فطرته • ثم تبناه بالروح عالم العراق الاستاذ محمود شكري الالوسي فلقيه
في اثني عشر عاما اصول المعقول والمنقول من علوم الدين واللغة والادب ،
ثم حاول ان يقبسه اشعة من نور سلفيته وتقواه ، ولقبه بالرصافي رجاة ان
يخلف معروفا الكرخي في صوفيته وزهده • ولكن غرائز معروف كانت
اقوى ، ومطامحه كانت ابعد ، فخرج من هذه الرياضة الطويلة مسلم
اللسان جاهلي القلب •

ووجد الرصافي العراق على فترة من الشعراء ينتظر ابا نواسه
المبعوث ، فصدح على ضفاف الرافدين صدحاته المعروفة فأصغت اليه
الاسماع واهتزت له القلوب • ورأى الناس في امثال قصائده (المطلقة)
و (ام اليتيم) و (اليتيم في العيد) اسلوبا من الشعر لم يعرفوه فأكبروه
وحاول ان ينفض عن نفسه غبار المتربة فزاول التعليم في مدارس بغداد •
ثم كان من الذين صارعوا استبداد عبد الحميد بقوافيه المسمومة • فلما خر
الطاغية واعلن الدستور تعاضله النصر وازدهته الشهرة ، فاعتقد كما كان
يعتقد الشعراء ان له ان يقول وعلى الناس ان يفعلوا ، وان له ان ينق
وعليهم ان يبذلوا ، فذهب الى الاستانة يطلب المجد بوساطة شعره ، فكان
قصارى امره ان يكون خوجة في مدرسة او محررا في صحيفة ثم سما به
الحظ فانتخب نائبا • وظل في عاصمة الخلافة مدة الحرب الماضية حتى
اعلنت الهدنة • وكانت ثورة العرب على الترك يومئذ قد انجلت عن عرش
امية في دمشق يجلس عليه فيصل الاول ، ومن حوله سيوف الثورة
والاستنها • وجاء الشاعر الطماح يبحث عن مكانه في الدولة العربية الجديدة

فلم يجد ، فانتقل بعد طون الصبر وادمان السعي الى فلسطين خائب الامل
كأسف البال يبتغي العيش فيها من طريق التعليم . فلما انتقل العرش
الهاشمي من الشام الى العراق سنة ١٩٢١ ، عاد الرصافي الى وطنه ورجا
ان ينال في بغداد ما لم ينله في دمشق . وتهايا خليفة النواصي لينادم خليفة
الامين ، واذا الامل الفسيح والطموح البعيد يسفران عن وظيفة متواضعة
في وزارة المعارف ، حينئذ تفجر غيظه المكتوم على السلطان ورجاله فأعلنها
شعواء بالهجاء المقذع والتهكم الفاحش . ووسعه (معاوية بني هاشم)
بحلمه ، وتعمد اساءته باحسانه ، ففتح له الطريق الى مجلس النواب ثم
عاد فأغلقه دونه .

ونال الخذلان والحرمان من نفس معروف ومن جسده ففتر نشاطه
وتراجع شعره ، ورضي من دهره بالمهلكات الثلاثة : شرب العرق ولعب
الورق ، واستباحة الجمال !

وعلى هذه الحال المضنية ادركه الفقر والمرض والموت دون ان يجد
آسيا من ايمانه ، ولا مواسيا من اخوانه !



قلت لصاحبي ذات ليلة في بغداد : اريد ان ازور الرصافي فقد زارني
مرارا ولم ازره . ودخلنا البيت فاذا هو بيت الشاعر الاعزب المتلاف ، لا
اثاث ولا نظام ولا حرمة . وكلمة الشاعر هنا بدل الاديب تدل على ان
ليس بالمنزل مكتب ولا مكتبة ، فقد كان الرجل لا يقرأ وانما كان يتكلم
على شدة ذكائه وحدة فهمه ، ويكتفي بما حصل في شبابه من اديه وعلمه .
كان في الردهة قوم يأكلون ويشربون ، وفي حجرة النوم آخرون يسكرون
ويلعبون . وكان الرصافي يتصدر هؤلاء ، في يمينه كأس ، وفي يساره ورق .
فلما رأيته فض اللعب واقبل بانسه علي . ثم اخذ يشرب ويتحدث باللغة
العارية عن الحقائق العارية في غير اكتراث ولا تحفظ . ويظلم الرصافي من

يقيد عليه في مثل هذه الحال • ولكن نداماه يروون شعره او يذيعون حديثه
فيبلغ الملك فيغضب ، او صاحب الحكم فيعجب او صاحب الدين فيصخب ،
او صاحب الخلق فيثور • وكل اولئك يعادون الرصافي ولكنهم يهابونه
لشخصيته ، ويحترمونه لعبقريته ، ويتربصون به سوء المصير •

هذه صورة مصغرة لحياة الفقيد الكريم • اما عقيدته فالامر فيها
لله لا للناس ، واما شاعريته فالحكم عليها للنقاد لا للمؤرخ •

جميل صدقي الزهاوي

ان الزهاوي هو في مجلس الصداقة شاك أو شاكر، وفي مجلس الادب محاضر أو شاعر ، وفي مجلس الانس مفاكه او محدث •

كان يتكلم او ينشد ونبراته المؤثرة ، وقسماته المعبرة ، ولحيته الخفيفة المرسلة ، ووجهه المسنون الاعجف ، وشاربه النائم على فمه الاهرث^(١) ، وعينه البراقة ترأري^(٢) من خلف المنظار ، وشعره الاشمت ينهدل على تنوء الصدغ ، كل اولئك كان يخيل الي ان طيفا من اطياف الجدود ، او نبيا من انبياء اليهود ، قد انشق عنه حجاب الزمن فجأة في هذا المكان الصامت والنور القاتم والجو الغريب • ولكن الحيوية التي تفيض في كلماته ، والعزيمة التي تضطرم في نظراته ، كانت تطرد هذا الخيال وتجعلني وجها لوجه امام (كتلة) من الاعصاب القوية المشدودة ، تتكلم وتتألم ، وتثور وتهدأ ، وتسخط وترضى ، وموضوع مقالها وانفعالها لا يخرج ابدا عن (الانا) اذا صح هذا التعبير •

واظل انا امام هذا الجيشان الروحي ساهما حالما افكر في الذهن الذي لا يكل ، واللسان الذي لا يفتر ، والزهو الذي لا يتطامن ، والطموح الذي لا يتقاصر ، والقلق الذي لا يسكن ، والتمرد الذي لا يهن ، والشباب الذي يلبس رداء الشيخوخة ، والحياة التي تتخذ هيئة الموت !

كنت القاه في خلال الاسبوع مع الناس في منتداه بشارع الرشيد

(١) الواسع

(٢) رارا : حرك كلتا عينيه وادارهما •

او على ضفة دجلة جالسا على الدكة الخشبية ينشد الايات الرائعة ، او يرسل النكتة الباردة ، او يروي الخبر الطريف في بشاشة جذابة وقهقهة ساذجة ، ويده المرتعشة لا تنفك تبعث بسبحته الصغيرة .

و كنت ازوره « بالصابونية » فأراه في مبادله قاعدا يشكو الوصب لانه قضى الليل ساهدا يقرأ ، او ذاهلا ينظم ، فالقصص والمجلات منتشرة على سريره وعلى مقعده ، والمسودات مدسوسة تحت مخدته او في ثيابه ، فلا يتمالك حين يراني ان يصيح : انظر كيف اذيب عمري في شعري والامة تقذفني بالبهتان ، والحكومة تخرجني من مجلس الاعيان ، والمملك يستكثر على ان اكون شاعر البلاط ! (اني سأذهب وستبقى اشعاري معبرة عن شعوري وناطقة بالامي . فهي دموع ذرفت على الطرس ، وهي خليفة ان تبعث من عيون قارئها دمة هي كل جزائي عن نظمها) .



رأى وهو في الاستانة عبد الحميد يلقي الاحرار مغلولين في غيابة السجن او في قاع البحر ، فأرسل اليه مع راسبوتينه ابي الهدى قصيدة منها :

أيأمر ظل الله في ارضه بما	فهى الله عنه الرسول المبجل
فيفقر ذا مال وينفي مبرأ	ويسجن مظلوما ويسبي ويقتل
تمهل قليلا لا تفظ امة اذا	تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وايديك ان طالت فلا تغتر ربها	فان يد الايام منهن اطول

فسجنه حيناً ثم نفاه .

وسمع وهو عضو في مجلس (المبعوثان) عن بغداد مقرر الميزانية يذكر في وزارة الحرية مبلغا ضخما من المال جعلوه لقراءة البخاري في

الاسطول للتبرك فقال : انا افهم ان يكون هذا المبلغ في ميزانية الاوقاف ،
اما ان يكون في ميزانية الحرية فلا افهمه ، لان الاسطول يمشي بالبخر
لا بالبخاري فثار عليه المجلس وشغب عليه العامة .

ورأى ما تعانيه المرأة من عنت الاستعباد والاستبداد والجهل ، فهب
لايقاظها ونصرتها ، حتى كتب في جريدة (المؤيد) مقاله المشهور : (المرأة
والدفاع عنها) فزلزل الناس في بغداد وفي غير بغداد ، فسعوا به الى ولاية
الامر ليعزلوه ، وحرشوا عليه دهاء الشعب ليقتلوه ، فاضطر الي لزوم
داره .

ونظم في اعقاب عمره (ثورة في الجحيم) ففرغ المتزمتون من شرها
الى الملك فيصل الاول . فلما كلمه في ذلك قال : ماذا اصنع يا مولاي ؟
عجزت عن اضرام الثورة في الارض فأضرمتها في السماء !



كأنما تفتح عقل الزهاوي قبل ان يتيقظ هواه ، وحلق فكره قبل ان
ينهض خياله ، وادرك علمه قبل ان يولد شعره ؟ فلقد كان يهدف للثلاثين
من عمره وليس له من (أولب) الشعر وحي ، ولا في (برناس) الشعراء
محل ، انما كان في صدر شبابه ينظر في العلوم الفلسفية والطبيعية وسبيله
الى ذلك ما ترجم من المقالات في الكتب والمجلات ، لانه لم يعرف من
اللغات غير العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكلها لا تفصل فكر
الانسان بالتطور ، ولا تنقع غلة الظمان الى المعرفة . ومع ذلك استبطن
الزهاوي دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى الف كتاب (الكائنات)
في الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعليلها) في الفيزياء ، ذهب فيهما مذهبا
خاصا خالف به اقطاب العلم وجهابذة النظر كقوله : ان علة الجاذبية
ليست جذب المادة للمادة ، وانما هي دفعها لها بسبب ما تشعه من
الالكترونات . وسواء أنهض دليله ام دحض فانه يدل على النظر الثاقب
والفكر المستقل . ورجاحة عقله هي التي حملته وهو في ربيع العمر على

ان يشرف على ظواهر الكون وحقائق الوجود من سماء فكره لا من سماء خياله . والمعهود في عامة الشعراء ان يكونوا على النقيض من ذلك . فلما هيأته الاقدار الجميلة لرسالة الشعر كان فكره اقوى من خياله واسمى من عاطفته . والفكر والخيال والعاطفة هن ملكات النفس الادبية الثلاث ، فالفكر للمعقريّة بمثابة العين ، والخيال والعاطفة لها بمثابة الجناحين ، فاذا تغلبا عليه كان الشرود والزيغ ، وان تغلب عليهما كان الجفاف والعقم . ومن هنا جردوا اكثر ما قال ابو العلاء واقل ما نظم ابو الطيب من الشاعرية . والزهاوي شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة والفتنة النافذة ، وليس له الاذن التي (تموسق^(١)) ولا القريحة التي تصنع . فاللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والاسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية الجريئة تعج بين الابواب المتخاذلة عجيج لامواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة .

والزهاوي عقلية افافة وحيوية دفاقة وطبيعة ساخرة . وهذا التوثب انحماسي فيه هو الذي جعله يؤثر النظم في تقييد خواطره . وهذه الحماسة قد تنفك احيانا عن الفكرة لكلالها او ابتذالها فيذهب الشاعر ولا يبقى الفيلسوف . ويكون الزهاوي معك كالآلة تدور مليئة بمتزنة ما دامت على شيء فاذا نفدت مادتها فجأة انطلقت تدور على الفارغ سريعة مضطربة . وذلك لان الفكرة الفلسفية هي المادة الاصيلّة في شعر الزهاوي وليس الشعر كله فكرة وانما هو فضلا عنها صورة يرسمها الخيال وشعور تبعثه العاطفة . على ان فكرة الفيلسوف واضحة وجمالها في هذا الوضوح وفكرة الشاعر خفية وسحرها في هذا الخفاء . اما ان تدرس الطبيعة لتعرفها وتشرحها فتكون صاحب فلسفة ، واما ان تدرسها لتقلدها وتصورها فتكون صاحب شعر . اما الخلط بين الفلسفة والشعر لان الشاعر يدرس ظواهر الكون ، فكالخلط بين التصوير والتشريح لان المصور يدرس بواطن الجسم .

(١) لا مانع فيما اظن من ان اشتق هذا الفصل من الموسيقى .

كان الزهاوي كشوقي حريصا على متابعة العصر ومسايرة التطور • ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف • ويزيد الزهاوي ان الفخر يزهاه ، وان التيه يذهب به ، فيحب الثناء ويبغض النقد • فهو لفرقة من صفة القدم يسبق الشباب الى التجديد، ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأي الى التطرف ولطمعه في نهاية الذكر يجاري ميول الخاصة ويعارض هوى العامة • وزراية على الجمود بمحاربة اهل الدين ، وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامة •

والزهاوي بعد هذا وقبل هذا كان رسولا من رسل الفكرة الانسانية، وبطلا من ابطال النهضة العربية • كان يهزج بأغاريد الفجر على ضفاف مجلة فتتردد اصداؤها الموقظة على ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل لمغرب • وادب الزهاوي وامثاله هو الذي وصل القلوب العربية في مجاهل القرون السود بخيوط الهية غير منظورة ، حتى استطاعت اليوم ان تتعارف وتتآلف وتتحالف ، ثم تسعى لتعود امة كما كانت ، وتقوى لتصبح دولة كما يجب ان تكون •

الفهرس

الدراسة

٥	الزيات : معلم جيل
٨	آثاره
١٢	أدبه

مقالات وصفية

٢٥	
٢٧	الخريف في الريف
٣٠	الراديو والحكواتي
٣٣	في الاقصر
٤٣	أعياد الحياة والحرية
٤٥	حديقة في بغداد
٤٩	في الربيع
٥٢	ولدي
٥٥	ليالي الحصاد
٥٨	من مآسي الحرب
٦١	الحياة جميلة
٦٤	انسلام

٦٥	في مخبأ الفيشاوي
٦٨	الشتاء
٦٩	الامل
٧١	من فكاهات العهد التركي
٧٤	ربيع و ربيع
٧٧	مقالات اجتماعية
٧٩	الفردية غالتنا الاصيله
٨٢	عيد الفقير
٨٤	حفلة أدبية
٨٧	رجل سعيد
٩٠	كلكم حواريون فمن يهوذا ؟
٩٣	الادب الصادق
٩٦	تأمل ساعة
٩٧	داء الوظيفة
١٠٠	ذكرى المولد
١٠٣	إعيادنا
١٠٦	تكاليف الاستقلال
١٠٨	هل لاغنيائنا وطن
١١١	بين ناخب ونائب
١١٥	مثله في الشباب الصالح

١١٨	مذهبي في الحياة
١٢١	تحرير المرأة

مقالات قومية

١٢٥	وعينا القومي ينضج
١٢٧	حول الديمقراطية
١٣٠	يوم عظيم لسورية العظيمة
١٣٢	الدفاع المقدس
١٣٤	أبناء العروبة
١٣٦	فرعونيون وعرب
١٣٩	مالى ما اكتب
١٤١	الربيع الاحمر

عظماء وادباء

١٤٧	محمد الزعيم
١٥٠	أبو العلاء المعري
١٥٣	المنتبي
١٥٦	مصطفى كامل
١٥٩	جمال الدين الافغاني
١٦٣	الشيخ محمد عبدو
١٦٧	محمد حافظ ابراهيم

١٧٢	احمد شوقي
١٧٥	مصطفى لطفي المنفلوطي
١٧٧	مي زيادة
١٨٠	معروف الرصافي
١٨٤	جميل صدقي الزهاوي
١٨٩	الفهرس